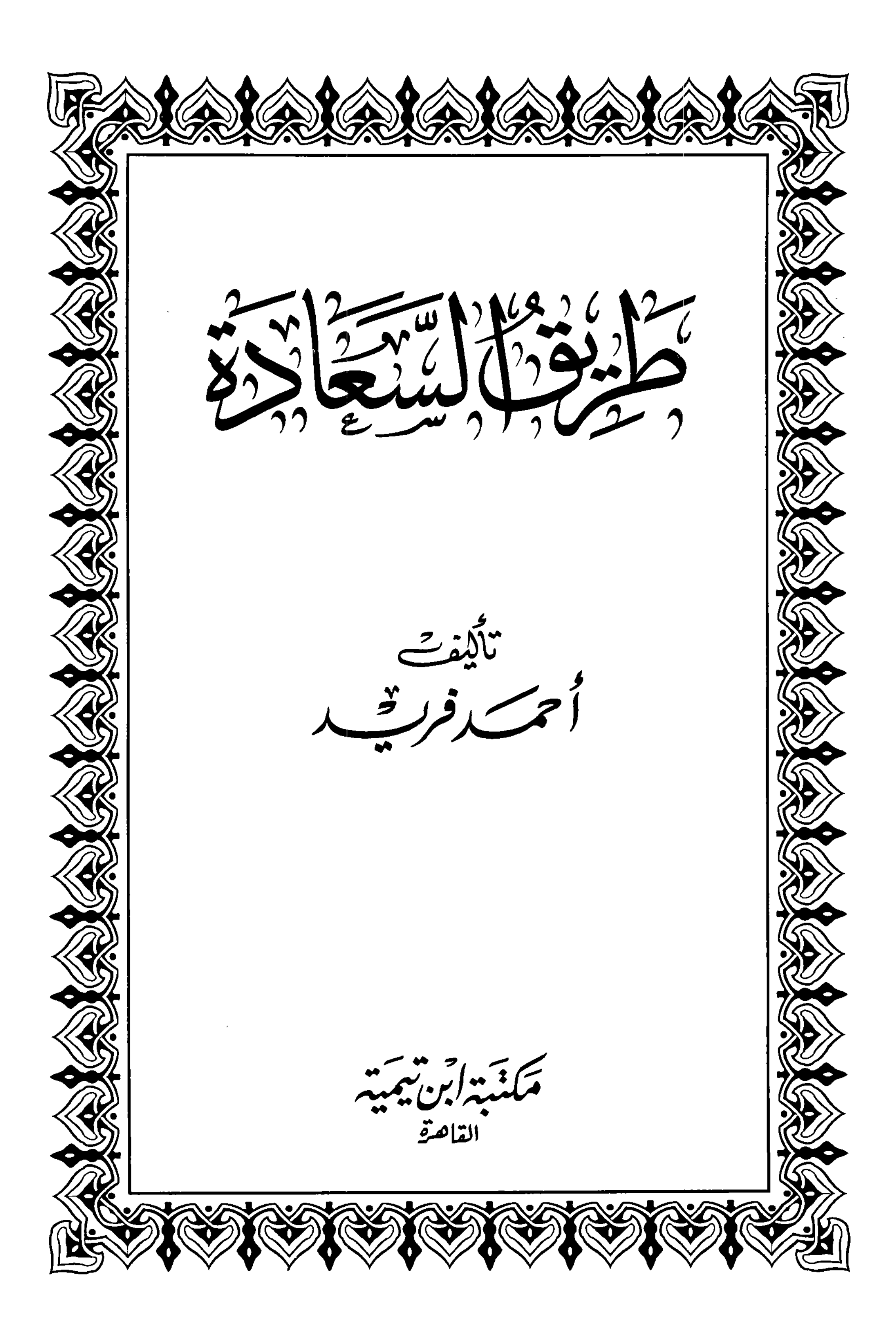


طريق السعادة

تأليف

أحمد فريد

مكتبة ابن تيمية
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم


طريق السعادة

الطّبعة الأولى

١٤١٩ هـ / ١٩٩٩م

مكتبة ابن تيمية - القاهرة ٥٨٦٤٢٤٠

المقدمـــة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مقدر الأقدار، مكور الليل على النهار، تبصرة لأولي القلوب والأبصار، الذي أيقظ من شاء من خلقه فجعله في جملة الأخيار، فاستنارت قلوبهم بلوامع الأنوار، أحمده أبلغ الحمد على جميع نعمه، وأسأله المزيدَ من فضله وكرمه.

وأشهد أن لا إله إلا الله العظيم الحكيم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضل المخلوقين، وأكرم السابقين واللاحقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، وآل كُلٍّ سائر الصالحين.

ثم أما بعد:

فلو سألت البَرَّ والفاجرَ والمؤمن والكافر ماذا تريد؟ ولأي شيءٍ تهدف؟ لقالوا جميعًا: نطلب السعادة، أما المؤمن فيهدف إلى سعادة الدنيا والآخرة، والكافر يطلب سعادة الدنيا وحدها لأنه لا يؤمن بالآخرة.

فالناس يسعون وينصبون ويكدون ويجتهدون لهدف واحد وهو الوصول إلى السعادة.

فمن يسعى لجمع المال يهدف إلى الوصول إلى السعادة.

ومن يلهث خلف الشهوات البهيمية يهدف إلى الوصول إلى السعادة.

ومن يسعى للشهرة والجاه والسلطان يهدف إلى الوصول إلى السعادة.

كما أن من يؤمن بالله ويعمل صالحًا يطلب السعادة.

فكيف الطريق إلى السعادة؟ وكيف يسعد العبد في الدنيا والآخرة؟

هذا السؤال يهم كل البشر مؤمنهم وكافرهم، ولا يغضّ الطرف عن هذا السؤال إلا من غُلِبَ على قلبه وعقله؛ لأن العجماوات لو سُئلت عن مقصودها وأنطقها اللهُ عز وجل لأقرت بأنها تريد السعادة. فكيف لا يسع المسلم العاقل أن يفكر في هذه القضية، وأن يحدد الطريق الذي يسلكه حتى يصل إلى الهدف الذي ينشده، ولحسم هذه القضية تختلف الوسائل والسبل، فالمسلم العاقل يقول: هذه القضية لا بدَّ أن تحسم من جهة الرسل الكرام؛ لأنهم أعلم الناس، وأنصح الناس للناس، ولأنهم الذين أرسلهم الله عز وجل لهداية البشر للسعادة الدنيوية والأخروية.

وقد يقول بعضهم: نسأل الصالحين والعُبَّاد الذين وجدوا السعادة، وعرفوا طريقها.

وقد يقول بعضهم: نسأل التائبين الذين سلكوا طريق الشهوات والإعراض عن رب الأرض والسماوات، ثم هداهم الله عز وجل فسلكوا طريق الإيمان والعبادة، وحددوا بواقع تجربتهم كيف تكون السعادة.

ولقائل أن يقول: نستقرأ أحوال الناس، وواقع البعيدين عن شرع الله من الأفراد والأمم، فإن كانوا وجدوا السعادة في الإعراض عن شرع الله ـ عز وجل ـ كفانا أن نجرب مثل تجاربهم لمعرفة طريق السعادة.

ولقائل أن يقول: يسأل كل واحدٍ منا نفسه، فكل واحدٍ مِنَّا جَرَّب الطاعة وجَرَّب المعصية، فأين وجد السعادة؟ ومتى اطمأنت نفسه، وسعد قلبه؟

ولقائل أن يقول: نسأل المُنْصفين من الغربيين، الذين كانوا في ظلمات الكفر، ثم خرجوا إلى نور الإيمان وضياء التوحيد، فإنهم لا يجاملون ولا يجازفون.

فهذه طرق متنوعة مستوعبة لمسالك إجابة هذا السؤال.

أين طريق السعادة؟

ولعلك تعجب حين تعرف أنك لو سلكت أي طريق من هذه الطرق، وسألت كل منصف، واستقرأت أحوال الناس والمجتمعات لكان الجواب:

لا طريق للسعادة إلا في الإيمان والعبادة

فإن قلت: فلماذا أعرض أكثر الناس عن سلوك هذا الطريق؟

فالجواب قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لقد ضل أكثر الناس عن الصراط المستقيم الموصل إلى رضى رب العالمين، وسعادة العباد في الحياة الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

فَيَا عَجَبًا مِّن مُعْرِضٍ عَنْ حَيَاتِهِ ... وَعَنْ حَظِّهِ العَالِي وَيَلْهُو وَيَلْعَبُ

وَلَوْ عَلِمَ الْمَحْرُومُ أَيَّ بِضَاعَةٍ ... أَضَاعَ لأَمْسَى قَلْبُهُ يَتَلَهَّفُ

فَإِنْ كَانَ لاَ يَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ ... وَإِنْ كَانَ يَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَصْعَبُ

بَلَى سَوْفَ يَدْرِي حِينَ يَنْكَشِفُ الغَطَا ... وَيُصْبِحُ مَسْلُوبًا يَنُوحُ وَيَنْدُوبُ

وَتَعْجَبُ مِمَّنْ بَاعَ شَيْئًا بِدُونِ مَا ... يُسَاوِي بِلاَ عِلْمٍ وَأَمْرُكَ أَعْجَبُ

لأَنَّكَ قَدْ بِعْتَ الحَيَاةَ وَطِيْبَهَا ... بِلَذَّةِ حُلْمٍ عَنْ قَلِيلٍ سَيَذْهَبُ

فَهَلاَّ عَكَسْتَ الأَمْرَ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا ... وَلَكِنْ أَضَعْتَ الْحَزْمَ وَالْحُكْمُ يَغْلِبُ

تَصُدّ وَتَنْأَى عَنْ حَبِيبِكَ دَائِمًا ... فَأَيْنَ عَنِ الأَحْبَابِ وَيْحَكَ تَذْهَبُ

سَتَعْلَمُ يَوْمَ الحَشْرِ أَيَّ تِجَارَةٍ ... أَضَعْتَ إِذَا تِلْكَ الْمَوَازِيْنُ تُنْصَبُ

قال الله تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عن أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولابد لكل من عمل صالحًا أن يحييه الله حياة طيبة، بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمرٍ إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضى بتركها كلها والخروج منها رأسًا، وعَرَّض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهل متحلٍّ بهذا منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزتُ ورب الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحًا مسرورًا. ويقول الآخر ـ مع فقره ـ: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. ويقول الآخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا. وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقاتٌ أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل، وهو أمر يشهد به الحسن والوجود، وأما سعادة الآخرة فغيبٌ يعلم بالإيمان[١].

وقال كذلك: فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرَّت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه، ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يلم شعثه بغير ذلك البتة، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات، فإنه إن كان ذا هِمَّةٍ عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، فإن همته لا ترضى فيها بالدون، وإن كان مهينًا خسيسًا فعيشه كعيش أخس الحيوانات، فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ... مَا الْحُبُّ إلا لِلْحَبِيْبِ الأوَّل
كم منزل للمرء يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل[٢]

ثم أما بعد أيضًا: فهذا كتاب فريد في بابه، ووحيدٌ في محرابه، ينادي على الشاردين والمعرضين والمسرفين والمنحرفين عن الطريق المستقيم، وهدي رب العالمين من مكان بعيد، يقول لهم: هلموا إلى الطاعة والعبادة والسعادة، فليست السعادة في الشهوات الدنيوية واللذات الدنية، السعادة في الإيمان واتباع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والاجتهاد في الطاعات والخضوع لرب الأرض والسماوات.

هذا الكتاب خطاب للبعيدين عن الشرع المتين، الذين يظنون أنهم

---

(١) باختصار من «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٣٥ ـ ٣٦)، ط. مكتبة الفاروق الحديثة.

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»: (٣/ ٢٧٤)، ط. السنة المحمدية، بتحقيق: حامد الفقي.

لا يمكن أن يسعدوا حتى ينسلخوا من الشرع المتين ويتبعوا الشياطين، يقول لهم: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

يقول لهم ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

هذا الكتاب يخاطب ـ أيضًا ـ الشباب الملتزم بالطاعة والعبادة، الذي يعلم أنهما طريق السعادة، ولكن الفتن من حوله وأمواج الشبهات والشهوات، وما يعتريه من فترة وغفلة يتهيأ له أحيانًا أنه أخطأ الطريق، وأن أصحاب الشهوات والملذات هم الذين فازوا بالسعادة، فيتكاسل في سَيْرِه، وقد ينقلب على عقبه، ويعرض عن الهدى ويتبع الهوى، هذا الكتاب يثبته على الطريق ويقول له: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، ويقول له: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، يقول له: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

هذا الكتاب يحتاجه المؤمن والكافر والبر والفاجر، فهو يزيد أهل الإيمان إيمانًا، وينبه الغافلين والبعيدين عن الشرع المتين، ويعود بهم إلى الصراط المستقيم، وطاعة الرحمن الرحيم.

جمعت في هذا الكتابن المبارك جُمَلاً متكثرة من الأدلة على أن السعادة في الطاعة والعبادة، أدلة من الكتاب العزيز، وأدلة من السنة المطهرة، وأدلة من أقوال الصالحين والمصلحين، وأدلة من شهادات التائبين، وأدلة من واقع الأفراد البعيدين عن الشرع المتين، وأدلة من واقع المجتمعات التي تدين بالإباحية والكفر برب البرية، وأدلة من واقع النفوس وما تشهد به القلوب، وأدلة من أقوال المنصفين من الغربيين الذين حَصَّلُوا السَّعادة المفقودة، والدرة المنشودة في الإسلام والتسليم.

وبعد أن اتضح طريق السعادة، وبان لكل عاقل أنه طريق الإيمان والطاعة والعبادة أردفت ذلك ببيان **كيف تسلك طريق السعادة؟** وبَيَّنتُ أن مدارها على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو أصول الإيمان الستة، وأن القلوب تسعد بإيمانها بالله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. فهذه الأصول الستة ليست أمورًا جافة جامدة يجب على المسلم الإيمان بها، ولا واقع لها في حياته، ولا أثر لها على قلبه وسعادته كما يظن ذلك من بخس حظه من العلم النافع.

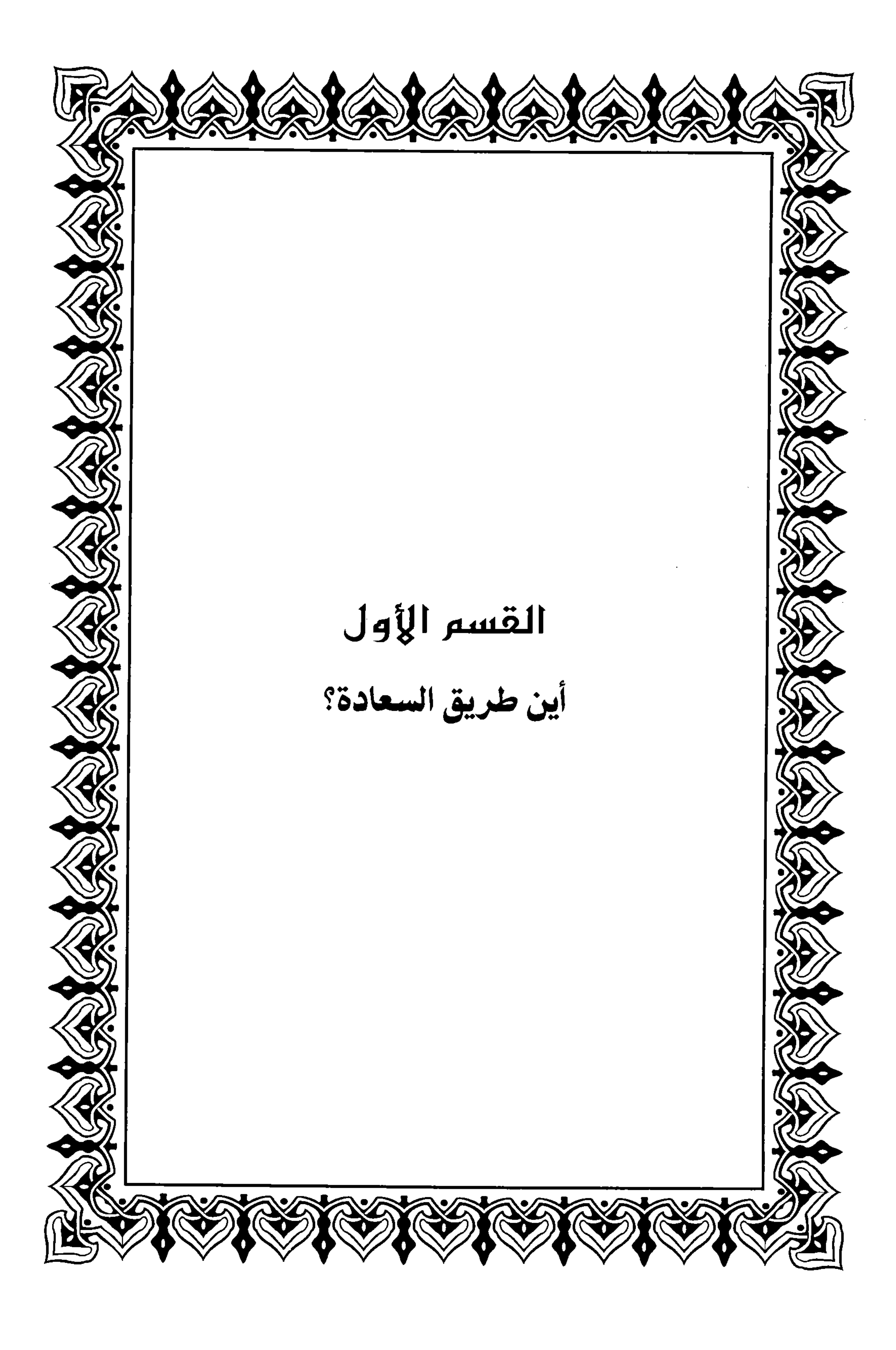
والأمر الثاني ـ مما عليه مدار السعادة ـ: اتباع سنة النبي ﷺ، فأهل البدع محرومون بحسب بدعتهم وإعراضهم عن سنة رسول الله ﷺ من السعادة في الدنيا، كما أنهم يحرمون يوم القيامة من السعادة بقربه، والشرب من حوضه ﷺ.

والأمر الثالث ـ من الأمور التي عليها مدار السعادة في الدنيا والآخرة ـ: أن يتعهد العبد نفسه بالطاعات والعبادات، وبينت أن لكل عبادة في القلب سعادة يستشعرها المؤمن في قلبه، كما أن ترك المعاصي والتنزه عن الشبهات والشهوات وسلامة القلب من الأدران وآثار الكفر والفسوق والعصيان له ـ أيضًا ـ في القلب سعادة، ولكن ذكرت بتفصيل الذكر السعادة في طلب العلم، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج؛ لأن العبادات لا تكون إلا بالعلم، والباقي أركان الإسلام وأموره العظام، فلا يزال القارىء الكريم يسعد بصفحاته، ويتعلم من وريقاته أسباب السعادة، وينتقل من شجرة إلى شجرة، ومن زهرة إلى زهرة يسعد بشذاها، فكأنه وفق لبستان فسيح مليء بالأزهار والأطيار والثمار، وإذا به عند نهاية الكتاب بفضل

الغني الوهاب يسلم للشرع قياده ويجتهد في الإيمان والعبادة، وينتقل من طاعة إلى طاعة، ومن عبادة إلى عبادة، ومن سعادة إلى سعادة، فسعادة أهل الإيمان متصلة موصولة بسعادة الآخرة، فهي سعادة لا مقطوعة ولا ممنوعة، بخلاف سعادة أهل المعاصي الزائفة الزائلة بمعصية الله عز وجل لحظات، ثم تنقلب ضنكًا وشقاوة وَهَمًّا وغَمًّا وكربًا في الدنيا قبل الآخرة.

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ لَذَّتها مِنَ الْحَرَامِ ويَبْقَى الإثْمُ والعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ مِنْ مَغَبَّتِهَا لاَ خَيْرَ في لَذَّةٍ مِن بَعْدِهَا النَّارُ

فنسأل الله القوي المتين أن يهدينا وسائر المسلمين إلى الصراط المستقيم، وأن يتم عليه نعمته، وأو يوفقنا لدخول جَنَّته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



القسم الأول

أين طريق السعادة؟

(١) أدلة القرآن المبين على أن السعادة في طاعة الله ربّ العالمين:

* **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتضمنت هذه الآية أمورًا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يعني: الحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير واللفظ له: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يعني: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم، وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يعني: الجنة، فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني. والآية تتناول

هذا كله؛ فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داعٍ إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داعٍ إلى الحياة في الدنيا والآخرة، والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك، وحياة قلبه وروحه بما يميز بين الحق والباطل والغي والرشاد.

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه فيصير حَيًّا بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقى إليه، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي[١]، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له أحد الحياتين، وفاتته الأخرى[٢].

---

(١) كذا، ولعل الصواب: «البشرى».

(٢) باختصار من «الفوائد» لابن القيم: (ص٦٧ ـ ٦٨)، ط. دار الحديث.

* قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: خالف أمري وما أنزلته على رسلي أعرض عنه وتناساه، وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ في الدنيا: فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن نعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبه يتردد فهذا من ضنك المعيشة. وعن أبي سعيد قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر[(٢)]، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعمُّ منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في

---

(١) باختصار من «تفسير القرآن العظيم»: (٣/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) الحديث رواه ابن حبان «الإحسان»: (رقم٣١١٩)، والحاكم: (١/ ٣٨١) عن أبي هريرة مرفوعًا بسند حسن.

الدنيا بأنواع النِّعم، ففي قلبه من الوحشة، والذل، والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة، والعذاب الحاضر ما فيه.

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا[1].

* * *

(١) «الداء والدواء» لابن القيم: (ص١٨٥) بتحقيق: علي الحلبي، ط. ابن الجوزي.

* قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالِحًا وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة.

قال المهايمي: أي: فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه، ولا يبطل تلذذه إعساره؛ إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه، ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته، والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه؛ إذ يزداد حرصًا وخوف فوات، ويجزون بالأحسن في الآخرة فلا يقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى. انتهى.

وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة اليقين، وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود، والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يستعبدون لها[1]، والاستكانة إلى معبود واحدٍ، والتَّنَوُّرُ بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فله الجزاء الأحسن، والثواب الأوفى[2].

---

(١) كذا، ولعل الصواب: «مما كانوا يستعبدونها».

(٢) «محاسن التأويل»: (١٠/ ١٥٦).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، وبالحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، وهم أحياء في الدارين، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس، وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه[1].

* * *

(١) «الداء والدواء»: (ص١٨٦).

* قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿أَوَمَن﴾ من قبل هداية الله تعالى له ﴿كَانَ﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي: ﴿مَيْتًا﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة فصار يمشي بين الناس في النور مُتَبَصِّرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير، مؤثرًا له مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر مبغضًا له مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، فيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي.

﴿الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسائل فحضره الهمُّ والغمُّ والحزن والشقاء.

فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوين هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات، فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيرًا؟ فأجاب بأنه ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يُحَسِّن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم حتى استحسنوها، ورأوها حقًّا.

وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشَّرِّ والقبائح[(١)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (٢/ ٦٥) للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط. دار المدني بجدة.

ويقول المفكر الإسلامي سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن هذه العقيدة تنشىء في القلب حياة بعد الموت، وتطلق فيه نورًا بعد الظلمات، حياة يعيد فيها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء، لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة، ونورًا يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديدًا كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نَوَّرَهُ الإيمان.

هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ، يعرفها فقط من ذاقها، والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة؛ لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها.

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله.. فهو موت.. وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية.. فهو موت.

والإيمان اتصال واستمداد واستجابة فهو حياة.

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهكذا يصور التعبير القرآني الفريد تلك الحقيقة بإيقاعاته الموحية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف، كانت قلوبهم مواتًا وكانت أرواحهم ظلامًا ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر، وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب: (٣/ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١)، ط. دار العلم للطباعة والنشر بجدة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال جعفر الصادق: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم ظلمات الشهوات.

وقال بعضهم: النعيم القناعة، والجحيم الطمع.

وقيل: النعيم التوكل، والجحيم الحرص.

وقيل: النعيم الاشتغال بالله والجحيم الاشتغال بغير الله تعالى[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من برد القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟

وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟! وقد أثنى الله تعالى على خليله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢] [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

• • •

---

(١) «التفسير الكبير» للفخر الرازي: (٣١/٧٨)، ط. دار الكتب العلمية، توزيع دار الباز.

(٢) «الداء والدواء»: (ص١٨٧).

(٢) أدلة السُّنة المطهرة على أنَّ سعادة العباد في طاعة الله عز وجل ـ أهل التقوى، وأهل المغفرة ـ:

ـ عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النَّار»[١].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ:

قال البيضاوي: المراد بالحبِّ هنا الحبُّ العقلي، الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أنَّ الشارع لا يأمر ولا ينهي إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاصٌ آجل، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك تمرن على الائتمار بأمره، بحيث يصير هواه تبعًا له، ويلتذ بذلك التذاذًا عقليًا إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك، وعَبرَّ الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة. قال: وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنوانًا لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى، وأنه لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه، وأن ما عداه وسائط، وأن الرسول هو الذي بين له مراد ربه، اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه. فلا يحب إلا ما يحب، ولا يحب من يحب إلا من أجله، وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حقًّا يقينًا، ويخيل إليه الموعود كالواقع، فيحسب أن مجالس الذكر ريـاض الجنة،

---

(١) رواه البخاري: (١/ ٧٧) الإيمان، ومسلم: (٢/ ١٣) الإيمان، والترمذي: (١٠/ ٩١) الإيمان.

وأن العود إلى الكفر إلقاءٌ في النار[1].

- **وعن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»[2].**

قال النووي رحمه الله:

قال صاحب «التحرير» رحمه الله: معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره. فمعنى الحديث: لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه، وذاق طعمه. وقال القاضي عياض: معنى الحديث: صح إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه، لأن من رضي أمرًا سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعة الله تعالى ولذت له والله أعلم[3].

- **وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إلَيَّ من الدنيا: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصَّلاة»[4].**

قال السندي رحمه الله:

قوله: «حبب إلي من الدنيا النساء»، قيل: إنما حبب إليه النساء لينقلن عنه ما لا يطلع عليه الرجال من أحواله، ويستحيا من ذكره. وقيل: حبب إليه زيادة في الابتلاء في حقه، حتى لا يلهو بما حبب إليه من النساء عَمَّا

---

(١) «فتح الباري»: (١/ ٧٨).

(٢) رواه مسلم: (٢/ ٣) الإيمان.

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٢/ ٣، ٤).

(٤) رواه النسائي: (٧/ ٦١) عشرة النساء، وأحمد: (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، وإسناده حسن.

كلف به من أداء الرسالة فيكون ذلك أكثر لمشاقه وأعظم لأجرة. وقيل: غير ذلك. وأما الطيب فكأنه يحبه لكونه يناجي الملائكة وهم يحبون الطيب، وأيضًا هذه المحبة تنشأ من اعتدال المزاج وكمال الخلقة، وهو ﷺ أشد اعتدالاً من حيث المزاج وأكمل خلقة.

وقوله: «قرة عيني في الصلاة» إشارة إلى أن تلك المحبة غير ما نعقله عن كمال المناجاة مع الرب تبارك وتعالى، بل هو مع تلك المحبة منقطع إليه تعالى، حتى أنه بمناجاته تقر عيناه، وليس له قريرة العين فيما سواه، فمحبته الحقيقية ليست إلا لخالقه تبارك وتعالى، كما قال: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»، وفيه إشارة إلى أن محبة النساء والطيب إذا لم يكن مخلاً لأداء حقوق العبودية بل للانقطاع إليه تعالى يكون من الكمال وإلا يكون من النقص فليتأمل[1].

- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «من نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[2].

---

(١) هامش: (٧/ ٦١، ٦٢)، «حاشية السندي لسنن النسائي».

(٢) رواه مسلم: (رقم٢٦٩٩)، وأحمد: (٢/ ٢٥٢، ٤٠٧)، والترمذي: (رقم٢٦٤٦)، العلم، وابن ماجه: (رقم٢٢٥).

فكيف يحصل العبد على السكينة والرحمة في غير طريق الله عز وجل، وقد سمى النبي ﷺ مجالس الذكر رياض الجنة فقال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلق الذكر . . .»[1].

ومن أنعم الله عز وجل عليه بنعمة الإيمان والالتزام بطاعة الله عز وجل فإنه يحس بقلبه ويستشعر بفؤاده صدق رسول الله ﷺ، وهذه السعادة سعادة حقيقية ليست كسعادة أهل المعاصي الزائفة الزائلة التي يعقبها هم وغم وضنك وشقاء، ولكنها سعادة دائمة متصلة سعادة في الدنيا توصل إلى سعادة الآخرة، فنسأل الله عز وجل أن يوفقنا للسعادتين.

وكما أشارت الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة عن السعادة بطاعة الله عز وجل، كذا أخبرت عن شقاء أهل المعاصي والذين يُعَبِّدُونَ لغير الله عز وجل.

- **قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثٍ رأسه مغبرَّةٌ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[2].**

---

(١) رواه الترمذي: (رقم٣٥١٠) الدعوات. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس.
وحسنه الألباني: (رقم٢٧٨٧)، «صحيح الترمذي».

(٢) رواه البخاري: (٦/ ٩٥) الجهاد، و(١١/ ٢٥٧) الرقاق.
والخميصة: ثياب خز أو صوف معلمة.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الطيبي: خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا يجد خلاصًا، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدنيا؛ لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة.

وقوله: «**إن أعطى . . . إلخ**» يؤذن بشدة الحرص على ذلك. وقال غيره: جعله عبدًا لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبدًا لهواه لم يصدق في حقه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلا يكون من اتصف بذلك صديقًا. وقوله: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»، وقوله «وانتكس»، أي: عاوده المرض، فعلى ما تقدم من تفسير التعس بالسقوط يكون المراد أنه إذا قام من سقطته عاوده السقوط، ويحتمل أن يكون المعنى بـ «انتكس» بعد «تعس» انقلب على رأسه بعد أن سقط[(١)].

وهذا حال من تعبد قلبه لغير الله عز وجل من مال أو شهوة أو درجة دنيوية، فالشقاء والضنك لكل من عَلَّق قلبه بغير الله عز وجل، وإنما يتعلق القلب بغير الله إذا خلا عن محبة الله عز وجل، فمنتهى سعادة العبد في تكميل عبوديته لله عز وجل، وشقاؤه في الدنيا والآخرة في عبوديته لغير الله.

ومما يبين كذلك أن سعادة العباد في طاعتهم لله عز وجل ورضاهم بقضائه وقدره واستسلامهم لأمره ونهيه، قوله ﷺ: «ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا غمٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمك، عدلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو

---

(١) «فتح الباري»: (١١/ ٢٥٩).

لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدله مكانه فرحًا»[1].

فلما خلقت القلوب لتوحيد علام الغيوب وغفار الذنوب كانت سعادتها في توحيد الله عز وجل، وإذا خلا القلب من محبة الله وعبادته صار أشقى من العين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، والجسد الميت، وكما أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فكذلك قلوب العباد لو كان فيها غير الله عز وجل لفسدت بذلك فسادًا لا يرجى له صلاح حتى توحد ربها عز وجل وتعبده بأمره ونهيه، وإنما تصاب القلوب بالهمِّ والغمِّ والحزن والضنك إذا كانت بعيدة عن الله عز وجل متعلقة بغيره، فلما خلقت للتوحيد والاستسلام للشرع المجيد، صار علاجها إذا أصابها هَمٌّ أو غمٌّ أو حزنٌ في التوحيد كذلك، والاستسلام للقضاء والقدر والأمر والنهي، فقال ﷺ: «ما أصاب عبدًا قط همٌّ ولا غمٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك . .» إلى آخر الحديث.

---

(١) رواه أحمد: (١/ ٣٩١)، وذكره الهيثمي في «المجمع»: (١٠/ ١٣٦)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال: «وذهاب غمي مكان همي»، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان، وقال الألباني: وجملة القول أن الحديث صحيح من رواية ابن مسعود وحده، فكيف إذا انضم إليه حديث أبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ، وقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.
انظر: «الصحيحة»: (رقم١٩٩).

بقي أن نعرف أن الله عز وجل إنما شرع الشرائع من أجل أن يسعد المؤمنون بها في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل لا يستفيد شيئًا من طاعات العباد، كما أنه عز وجل لا يتضرر بشيءٍ من معاصيهم، قال الله عز وجل: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فالعباد يذبحون وينحرون الهدي والأضاحي وهم الذين يأكلون لحومها، ويعظمون بذلك شرع الله عز وجل ويستجيبون لأمره، فطاعة العباد لا تزيد في ملك الله عز وجل شيئًا، كما أن معاصيهم لا تنقص من ملك الله عز وجل شيئًا، قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولم تبلغي نفعي فتنفعوني»(١) فشأن العباد أقل وأذل من أن ينفعوا الله عز وجل، فالعباد أنفسهم ينتفعون بطاعاتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم، والله هو الغني الحميد.

- **ومن ذلك قوله ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان: من عبد الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة به نفسه في كلِّ عام، ولم يعط الهَرِمَة ولا الدرنة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرها، وزكى نفسه» فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان»**(٢).

---

(١) رواه مسلم: (٧/ ١٠٠) الزكاة، والترمذي: (١١/ ١١٠) التفسير.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير»: (١/ ٢٠١)، والبيهقي في «السنن»: (٤/ ٩٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (رقم١٠٤٦).

وهو ظاهر كذلك في أن السعادة في الطاعة والعبادة حيث عَلَّق الشارع ﷺ وجدان طعم الإيمان، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله عز وجل أهل الإيمان والعمل الصالح بثلاثة أمور، الأمر الأول: هو إفراد الله عز وجل وحده بالعبادة، والأمر الثاني: هو إعطاء الزكاة مراعيًا آدابها من إخراج المال بنفس راضية، وعدم تيمم الخبيث. والأمر الثالث: وهو تزكية النفس وهو تطهيرها وتطييبها، وقد قال الله عز وجل: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

والنفس تزكو بالتوحيد وفعل الواجبات وترك المحرمات والاجتهاد في نوافل الطاعات، ولا شك في أن من يزكي نفسه يفلح في الدنيا والآخرة، ويسعد في العاجلة والآجلة، وسوف نفصل في القسم الثاني من الكتاب كيف تسلك طريق السعادة فتسعد في الدنيا والآخرة، والله الموفق للطاعات والهادي لأعلى الدرجات.

* * *

(٣) أقوال الصالحين والمصلحين في بيان أن طريق السعادة في طاعة الله عز وجل ربِّ العالمين:

قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وقال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله تعالى[١].

وقال بعضهم: أهل الليل في ليلهم أَلَذُّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وقال بعضهم: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة.

وقال بعضهم: عالجت قيام القيام سنة، وتمتعت به عشرين سنة.

وقال بعضهم: أنا منذ أربعين سنة ما أزعجني إلا طلوع الفجر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فالإحسان له جزاء معجل ولابد، والإساءة لها جزاء معجل ولابد، ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن من انشراح صدره، وانفساخ قلبه، وسروره ولذاته بمعاملة ربه عز وجل، وطاعته، وذكره، ونعيم روحه بمحبته.

وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بلسطانه، وما يجازى به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من

---

(١) لما كان الذكر من نعيم الدنيا لم يحرم الله عز وجل أهل الجنة من هذا النعيم، «فدعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»، وَيُلهم أهل الجنَّة التسبيح والحمد كما نلهم النفس. وروي «أن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا»، فنسأل الله سعادة الدنيا والآخرة.

له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزاب والضيق عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضاء به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته، ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: إنَّ في الدنيا جَنَّةً من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه بالقلعة: لو بذلت ملء القلعة ذهبًا، ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.. ما شاء الله».

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ٣١].

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب النَّاس عيشًا وأشرحهم صدرًا

وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جَنَّتَه قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

كان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخرُ: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله ومعرفته وذكره أو نحو هذا.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين، وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينُهُ بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وإنما يصدق هذا من في قلبه حياة[1].

---

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم: (ص٦٩ ـ ٧١)، دراسة وتحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، ط. دار الريان للتراث.

قال إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي وأبو عبد الله السنجاري نريد الأسكندرية، فمررنا بنهر يقال له: نهر الأردن، فقعدنا نستريح، وكان مع أبي يوسف كسيرات يابسات، فألقاهم بين أيدينا فأكلنا، وحمدنا الله فقمت أسعى أتناول ماءً لإبراهيم فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء ركبتيه، فقال بكفيه في الماء فملأها، ثم قال: بسم الله وشرب. فقال: الحمد لله، ثم أنه خرج من النهر فمد رجليه وقال: يا أبا يوسف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش، وقلة التعب. فقلت له: يا أبا إسحاق، طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم، فتبسم ثم قال: من أين لك هذا الكلام[1].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله عز وجل والإقبال على الدنيا، وكلما فات فيها شيءٌ وقع الغم لفواته.

فأما من رزق معرفة الله تعالى استراح؛ لأنه يستغني بالرضا بالقضاء، فمهما قدر له رضي، وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج في قلبه اعتراض؛ لأنه مملوك مدبر، فتكون همته في خدمة الخالق.

وَمَنْ هذه صفته لا يُؤثر جمع مال، ولا مخالطة الخلق، ولا الالتذاذ بالشهوات، لأنه إما أن يكون مُقَصِّرًا في المعرفة، فهو مقبل على التعبد المحض، يزهد في الفاني لينالَ الباقي.

---

(١) «حلية الأولياء»: (٧/ ٣٧٠)، و«صفة الصفوة»: (٤/ ١٥٣).

وإما أن يكون له ذوق في المعرفة، فإنه مشغول عن الكُلِّ بصاحب الكل.

فتراه متأدبًا في الخلوة به، مستأنسًا بمناجاته، مستوحشًا من مخالطة خلقه، راضيًا بما يقدر له، فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه، ولا يهتم بغيره. فأما من لم يذق هذه الأشياء فإنه لا يزال في تنغيص، متكدر العيش لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه، فيبقى أبدًا في الحسرات، مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة، نسأل الله أن يستصلحنا له، فإنه لا حول ولا قوة إلا به[1].

وقال الشيخ الغزالي خليل عيد:

إن الإنسان الذي يؤمن بأن للعالم ربًّا واحدًا خالقًا رازقًا وإلٰهًا عليًّا عظيمًا لا شريك له في ربوبيته، ولا يجوز أن يشرك معه أحدٌ في عبادته، ويؤمن بأنه ساع إلى ربه سعيًا فملاقيه، وأنه قائم مسئول أمامه عَمَّا قَدَّم وأَخَّر ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ ـ ٦].

هذا الإنسان الذي آمن بربِّه وبلقائه وجزائه ـ يحيا في هذه الدنيا حياة طيبة، دائرًا في فلك الرضا والطمأنينة والأمان، شاكرًا لفضل ربه وعطائه صابرًا على قضائه وابتلائه، مؤمنًا بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فتراه دائمًا رضي القلب، مطمئن النفس، واثقًا بأن ما عند الله خير وأبقى وأعلى وأثمن وأنقى من كل ما في هذه الدنيا من زينة وبهجة ومتاع، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، لعلمه بأن هناك جزاء حسابًا من هذا المنطلق، يقضي حياته العاجلة في طاعة ربه ما استطاع، وفي نفع نفسه وأهله ومجتمعه ما أمكنه ذلك، وفي دعوة الناس ـ بحاله وقيله ـ أن

---

(١) «صيد الخاطر»: (ص٣٢٩ ـ ٣٣٠)، ط. المكتبة العلمية.

يسلكوا هذا السبيل السوي المستقيم، فهو من الله في رضى ومن الناس في نصح وعافية، ومع نفسه في جهاد وحساب، لكنه جهاد مستلذ مستطاب؛ لأن ذلك كله مقرون بالطمأنينة والأمن والأمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ . .﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

هذه هي باكورة الثمرة (للفرد المؤمن) يقطفها في هذه الحياة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧].

وأما الثمرة التي يقطفها (المجتمع المؤمن) المؤلف من أولئك الأفراد المؤمنين فثمرة الأمن والسلام والحب والوئام، والتعاون على البر والتقوى، والاطمئنان على النفوس والدماء، وعلى الأموال والممتلكات، وعلى الأعراض والأنساب، وعلى الحرية والقيم والمعتقدات.

وهل هناك ثمرة أطيب من هذه الثمرة للمؤمن ولمجتمع المؤمنين؟[1]

وقال الأستاذ سليم الهلالي:

إن للمؤمنين أهل محبة الله من النعم والسرور والفرح بالله ما لا يجده إلا من ذاق طعم الإيمان، فمن ذاق عرف، ومن عرف اغترف من نهر المحبة الخالصة الذي فجره الله في قلوب أوليائه، فسلكه ينابيع في جوارحهم، فاتخذوا صالح العمل وطيب القول سُفُنًا تمخر بهم إلى حلاوة الإيمان[2].

---

(١) «مجلة البحوث العلمية»: (العدد الثامن، ص٢٤٤ ـ ٢٤٥)، ط. دار أولي النهى، بإذن من الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

(٢) «حلاوة الإيمان في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة»: (ص٦)، ط. دار ابن الجوزي.

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار[1]، وسبب ذلك واضح فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان، يتلقون المحاب والمسارَّ، بقبول لها وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملها على هذا الوجه أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها ورجاء ثواب الشاكرين أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها[2].

وقال الدكتور عمر الأشقر:

يكشف القرآن والسنة للعباد عن حقيقة السعادة العظمى، التي يجد العباد في أكنافها الطمأنينة والهدوء والراحة، فيندفع إلى تحقيق ما يطلبه ربه منه بقوةٍ وعزمٍ على الرغم مما يجده في طريقه من صِعاب وعقبات.

وقد أعلمنا ربنا أن تزكية النفوس بهدى الله، ونور كتابه، والاستقامة على ذلك، هو الذي يجعل العبد يحصل السعادة في الدنيا والآخرة، قد يظن بعض الناس أن السعادة في الدنيا تتحقق إذا تمتع العبد بأنواع المآكل والمشارب والملابس، وحصل على المال والجاه والسلطان، وتزوج بالجميلات من ذوي

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

(٢) «المجموعة الكاملة لمؤلفات عبد الرحمن بن ناصر السعدي»: (٥/ ٢/ ٤٨٣)، ط. مركز صالح بن صالح.

الأحساب والأنساب. ومن تفكر في حال هؤلاء تفكر مبصرٍ معتبر، علم أن ما حصلوه يشاركهم فيه البهائم، بل قد يكون حظ البهائم من أنواع اللذات أعظم من حظوظ البشر منها. إن النعيم الأكبر الذي يمكن أن يحوزه العبد في دنياه ينبع من القلب الذي خالطته بشاشة الإيمان، فإذا ما استولى الإيمان على القلب وجد حقيقة النعيم الذي اشتغل عنه الغافلون بمتاع الدنيا، فكانوا كمن سلى عن الذهب بالتراب ورضي عن سكنى القصور بسكنى القبور.

إن الذين حصلوا حلاوة النعيم الإيماني شغلهم هذا النعيم عن الأهل والأوطان والأموال، بل تراهم يبذلون أنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل من أحبته قلوبهم، وترى الواحد منهم يُغْرَسُ الرمح في صدره فيقول: فزت ورب الكعبة. ويستطيل الآخر حياته فيلقي قوته عن يده، ويهرول إلى العدو منشدًا مستعجلاً الوصول إلى الجنة:

ركضًا إلى الله بغير زاد

إلا التقى وعمل المعاد

والصبر على الله في الجهاد[1]

ويقول الدكتور أنس أحمد كرزون:

فمن اجتهد في تزكية نفسه وترقيتها حتى يبلغ درجة الإحسان فقد فاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وتلك هي السعادة الحقة التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن السعادة المتوهمة التي يسعى إليها أهل الدنيا، يشقون ليحظوا بها فلا ينالون إلا مزيدًا من الشقاء والتعاسة، وأما سعادة أهل الإيمان فهي سعادة تنبع من القلب، وتتوطد أركانها نتيجة لإحساس المؤمن بالتكريم

---

(١) «منهاج تزكية النفس في الإسلام»: (ص٢٩ ـ ٣٠)، دار النفائس.

الإلهي، وخيرية الحياة، وخيرية المصير، وبهذا تزداد النفس شعورًا بالسكينة والأمن والأمل والرضا والحب.

وهذه السعادة النفسية تصحب العبد في جميع أسفاره من دار الدنيا إلى البرزخ إلى دار القرار وبها يترقى في درجات الكمال، وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة حتى تذوق حلاوتها وتدرك قيمتها[١].

وقال: .. وتتجلى سعادة المؤمن في الدنيا بما يحظى به من حلاوة الإيمان، وبما تتحقق به نفسه من بذل في مرضاة الله سبحانه، واستغناء عن الناس وعزة وسكينة وسمو، وبما يظهر على سلوكه من أخلاق حسنة، وأفعال مرضية، وما يستشعره من حياة طيبة ونحو ذلك[٢].

● ● ●

(١) «منهج الإسلام في تزكية النفس»: (٢/ ٧٥٤ ـ ٧٥٥)، دار نور المكتبات ودار ابن حزم.

(٢) السابق: (٢/ ٧٥٧).

(٤) شهادة التائبين على أن طريق السعادة في طاعة الله عز وجل رب العالمين:

وهذا الباب يختلف عن الباب السابق، فقد يوفق العبد إلى طاعة الله عز وجل من أول عمره، دون أن يجرب دروب الضلال وتيه المعاصي وضنك الإعراض عن الله عز وجل، وهذا غالب من ذكرنا أقواله في الباب السابق، وأما في هذا الباب فنذكر فيه من تخبط في الضلال، وأعرض عن طاعة الكبير المتعال، يلهث خلف الشهوات، أو يبهره بريق المال والشهرة، وهو يظن أن طريق السعادة هو طريق الشهوات، وهو بعينه طريق المال والشهرة، وإذا به يعيش حياة الضيق والضنك والبلاء والشقاء، وبينما هو يتخبط في الظلمات إذا بالنور يلج إلى قلبه، وينشرح به صدره، فيجد الدرة المنشودة والسعادة المفقودة، ويحس ببرد اليقين، وبالرضا بالله رب العالمين، فيعلم أن القلب لا يسعد إلا بالله، ولا ينشرح إلا بطاعته وهداه ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، كيف يكون حال من حرم الهواء، إن من يَصَّعد في السماء يختنق لقلة ضغط الهواء في طبقات الجو العليا، إنَّ الإسلام هو هذا الهواء الذي ينفسخ به الصدر، وتحصل به الحياة، وهو الروح الذي من حرم منه فقد حرم من الحياة الحقيقية، والسعادة الدنيوية والأخروية، وهو النور الذي من بخس حظه منه إذا به يتخبط في الظلمات، ظلمات الشرك والشكوك والشبهات والشهوات.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام:

١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وإنما يستشعر الحياة الحقيقية بالله عز وجل وبدين الله من حرم من هذه الحياة برهة من عمره، وزمانًا من دهره، وخدعه الشيطان الرجيم، فسلك سبيل المغضوب عليهم والضالين.

ونحن ننقل شيئًا من قصص هؤلاء التائبين، لعل فيها ما يؤنس وحشة البعيدين عن الشرع المتين، فيسرعوا الخطى إلى الله رب العالمين، وينضموا إلى صفوف التائبين، فرحين راضين برحمة أرحم الراحمين، فيحصلوا سعادة الدارين ويتخلصوا من الضنك والضيق الذي يعيشونه بعيدًا عن الطاعات وفيما يسخط رب الأرض والسماوات.

*** قصة بحث الممثل المغربي (سابقًا) سعيد الزياني عن السعادة وهدايته إلى الدعوة والعبادة:**

يقول الأخ سعيد الزياني:

نشأت في بيت من بيوت المسلمين، ولما بلغت سن المراهقة كنت أحلم ـ كما كان يحلم غيري من الشباب المراهق ـ بتحقيق شيئين مهمين في نظري آنذاك، وهما: الشهرة، والمال. فقد كنت أبحث عن السعادة، وأسعى إلى الحصول عليها بأي طريقة كانت.

في بداية الأمر التحقت بالإذاعة المغربية، وشاركت في تقديم بعض الفقرات التي تربط بين البرامج، ثم تقدمت فأصبحت أقدم برامج خاصة حتى اكتسبت خبرة في هذا المجال، ثم اتجهت إلى التليفزيون، وتدرجت فيه حتى أصبحت مُقَدِّمًا من الدرجة الأولى ـ وهي أعلى درجة يحصل عليها مذيع أو مقدم ـ وأصبحت أقدم نشرات الأخبار والكثير من برامج السهرة والمنوعات وبرامج الشباب، واشتهرت شهرة كبيرة لم يسبقني إليها أحد،

وأصبح اسمي على كل لسان، وصوتي يسمع في كل بيت، وعلى الرغم من هذه الشهرة إلا أني كنت غير سعيد بهذا. كنت أشعر بضيق في صدري، فقلت في نفسي: لعلي أجد السعادة في الغناء، وبالفعل قد ساعدتني شهرتي في الإذاعة والتليفزيون أن أقدم من خلال أحد البرامج التليفزيونية أغنية قصيرة، كانت هي البداية لدخول عالم الغناء. ودخلت عالم الغناء، وحققت شهرة كبيرة في هذا المجال، ونزل إلى الأسواق العديد، بل الآلاف من الأشرطة الغنائية التي سجلتها بصوتي.

وعلى الرغم من ذلك كله، كنت أشعر بالتعاسة والشقاء، وأحس بالملل وضيق الصدر، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فقلت في نفسي: إن السعداء هم الممثلون والممثلات، فأردت أن أشاركهم في تلك السعادة، فاتجهت إلى التمثيل، وأصبحت ممثلاً من الدرجة الأولى، فكنت لا أمثل إلا أدوار البطولة في جميع الأعمال التي أقدمها، والحقيقة ودون مبالغة، أصبحت شخصًا متميزًا في بلدي، فلا أركب إلا أغلى السيارات وأفخمها، ولا ألبس إلا الملابس الثمينة، مكانتي الاجتماعية أصبحت راقية، فأصدقائي هم كبار الشخصيات من الأمراء وغيرهم، فكنت أتنقل بين القصور من قصر إلى قصر، وتفتح لي الأبواب، وكأني صاحب تلك القصور، ولكن على الرغم من ذلك كله، كنت أشعر بأني لم أصل إلى السعادة التي أبحث عنها.

وفي يوم من الأيام أجرى معي أحد الصحفيين لقاءًا صحفيًا طويلاً، وكان من بين الأسئلة التي وجهها إليَّ هذا السؤال: الفنان سعيد الزياني . .

من المصادفات أن اسمك ينطبق على حياتك، فاسمك سعيد وأنت سعيد، ما تقول في ذلك؟

وكان الجواب: . . وفي الحقيقة إن ما تعتقده ويعتقده كثير من الناس غير صحيح، فأنا لست سعيدًا في حياتي، واسمي في الحقيقة لا يزال ناقصًا، فهو يتكون من ثلاثة أحرف وهي: س، ع، ي: «سعي»، وأنا مازلت أسعى أبحث عن الحرف الأخير وهو حرف «الدال» ليكتمل اسمي، وتكتمل سعادتي، وإلى الآن لم أجده، وحين أجده سوف أخبرك.

وقد أجرى معي هذا اللقاء وأنا في قمة شهرتي وثرائي.

ومرت الأيام والشهور والأعوام، وكان لي شقيق يكبرني سنًّا هاجر إلى بلجيكا، وكان إنسانًا عاديًّا، إلا أنه كان أكثر مني التزامًا واستقامة، وهناك في بلجيكا التقى ببعض الدعاة المسلمين فتأثر بهم، وعاد إلى الله على أيديهم.

فكرت في القيام برحلة سياحية إلى بلجيكا، أزور فيها أخي، فأمر عليه مرور الكرام ثم أواصل رحلتي إلى مختلف بلاد العالم.

سافرت إلى بلجيكا، والتقيت أخي هناك، فوجئت بهيئته المتغيرة، وحياته المختلفة، والأهم من ذلك السعادة التي كانت تشع في بيته وحياته، وتأثرت كثيرًا بما رأيت، إضافة إلى العلاقات الوثيقة التي تربط بين الشاب المسلم في تلك المدينة، وقد قابلوني بالأحضان ورحبوا بي أجمل ترحيب، ووجهوا لي الدعوة لحضور مجالسهم واجتماعاتهم، والتعرف عليهم بصورة قوية.

أجبت الدعوة، وكنت أشعر بشعور غريب وأنا أجلس معهم، كنت أشعر بسعادة عظيمة تغمرني لم أشعر بها من قبل، ومع مرور الأيام قمت بتمديد إجازتي لكي تستمر هذه السعادة، التي طالما بحثت عنها فلم أجدها.

وهكذا كنت أشعر بالسعادة مع هؤلاء الأخيار تزداد يومًا بعد يوم، والضيق والهم والشقاء يتناقص يومًا بعد يوم، حتى امتلأ صدري بنور الإيمان، وعرفت الطريق إلى الله الذي كنت قد ضللت عنه مع ما كنت أملكه من المال والثراء والشهرة.

وأدركت من تلك اللحظة أن السعادة ليست في ذلك المتاع الزائل، إنما هي في طاعة الله عز وجل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

امتدت إجازتي عند أخي أكثر من سنتين، وأرسلت رسالة إلى الصحفي الذي سألني السؤال السابق وقلت له:

الأخ ..... رئيس تحرير صحيفة: .....

في جريدة: .....

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. أودُّ أن أذكرك بالسؤال الذي سألتني فيه السعادة. وذلك في يوم ..... وتاريخ ..... وقد أجبتك بالجواب التالي:

ووعدتك متى ما وجدت حرف «الدال»، والآن يطيب لي ويسعدني ويشرفني أن أخبرك بأني قد وجدت حرف الدال المتمم لاسمي، حيث وجدته في الدين والدعوة، وأصبحت الآن سعيدًا حقًّا[1].

---

(١) «التائبون إلى الله» لإبراهيم بن عبد الله الحازمي: (ص٢٧٠ ـ ٢٧٣)، ط. دار الشريف للنشر والتوزيع.

* **شاب أوشك على الانتحار من الضيق والضنك ثم تداركه رحمة الله عز وجل:**

قال الشاب التائب: مر عشرون خريفًا من عمري وأنا في ظلام دامس، أتخبط خبط العشواء، لا أحس للدنيا طعمًا، المال كثير، أخلائي كثير، ماذا ينقصني؟ في نفسي جوعة وفي صدري ضيق، ماذا يشبع تلك الجوعة، ومن ذا يشرح هذا الضيق؟ لم تشبع نفسي قط، معازف لم تشرح صدري، على العكس تمامًا فالجوعة زادت، والضيق ازداد، بدلت أخلائي، سافرت وعدت، سهرت كثيرًا وشربت، لهوت كثيرًا وتعبت، والجوعة دائمًا تزداد، والضيق كذلك، أحسست كأني مسجون في دنياي وأن الأرض برحابتها ضاقت، فكرت كثيرًا وطويلاً، وأخيرًا ظهر الحل. الآن سأشعر بالراحة، هذه سكيني بيدي تلمع باسمة راضية عن هذا الحل، الناس هجوعٌ، والأهل نيام، لم تبق سوى لحظات وأعيش ساعات الراحة، لكن وأنا في تلك اللحظات وسكيني في يدي تقترب من قلبي الميت، جاء من أقصى الصمت صوت يسعى ويقول: الله أكبر . . الله أكبر، سقطت سكيني من يدي وتحرك قلبي الميت، وكأنه كان بغيبوبة، واستيقظ بعد طول سُبَاتٍ، ويح نفسي ماذا جَدَّ؟ أغريب هذا الصوت عشرون خريفًا تسمعه . . أما أحسست معناه إلاَّ الآن، وشرعت أحقق رغبة نفسي بإجابة هذا الصوت . . أخذت وَضوءًا، وبدأت وضوئي أسلت الماء على وجهي المرهق فارتاح وأراح براحته نفسي، خرجت إلى الشارع متجهًا نحو المسجد، والكون مخيفٌ بهدوئه، لا صوت يعلو . . لا ضوضاء . . دخلت المسجد مع تثويب صلاة الفجر، وقفت في الصف مع الناس . . طراز من الناس لم أعهده بحياتي، وجوهٌ بيضاء يشع منها نور، ونفوس طيبة مرتاحة، تقدم من بين الناس إمام أقبل عليهم بوجهه يحثهم على تسوية الصف، وشرعت أصلي

خلفه ونفسي مرتاحة وصدري مشروح، بدأ يقرأ آيات وأنا أنصت في تلك اللحظات، نزلت دمعة أحسست ملوحتها، وشعرت بلسعتها، أجهشت ببكاء صادق صنع من نفسي أزيزًا كأزيز المرجل، فنزل الدمع غزيرًا، وسال على خدي، وسقى أرضًا جدباء في قلبي الميت، فأحيا بهذا الدمع ـ بعد كلام الله ـ موت فؤادي، وكان بمعية هذا الغيث صوت الرعد رعد الرحمة، صوت نحيبي وبكائي من خشية رب الناس[1].

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف تشقى القلوب بالمعاصي، وكيف يضيق القلب بالتمرد على شرع الله، ثم كيف تسعد بذكر الله وتطمئن بطاعته وعبادته ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

فهذا الشاب التائب سلك درب الذنوب، وذاق ضنك الإعراض عن الله عز وجل، ثم مَنَّ الله عز وجل عليه بالهداية، فذاق برد اليقين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* **جندي يتوب على يد داعية فيصبح من حملة القرآن ومن العُبّاد.**

قال الشيخ عائض القرني:

كان الجندي في حراسته بجانب المسجد، وقام الداعية بعد الصلاة فتكلم، وسافر بالقلوب في رحلة إلى الدار الآخرة، تكلم ولكنه أسر الأرواح فأصبحت في يديه فإما مَنًّا بعدُ وإمَّا فداء، وأنصت الجندي بأذنيه لكلام الشيخ، وكان الشيخ يشرح قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ.. ﴾ [الحشر: ١٨]، وأفاض الداعية في ذكر الآخرة ومـا فيها من عجائب وأهوال، وتحدث عن الجنة وعن النار، وسلم

---

(١) من رسائل الدعوة السلفية «أخي الحبيب قف»: (ص٥٦ ـ ٦٩) بتصرف.

الجندي قلبه للداعية ليصله بالله عز وجل.

يقول الجندي عن نفسه: لقد أصبحت في حالة تشبه الذهول، لا أدري أين أنا، لقد فقدت قوتي على القيام فجلست على الأرض، وأتاني من البكاء ما الله به عليم.

لقد خاطب هذا الداعية الفطرة المودعة في هذا الرجل، فطرة الإيمان والتوحيد ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ولقد تذكر هذا الجندي أيامه السوداء البائسة، وتذكر وقوفه بين يدي ربه تبارك وتعالى في يوم العرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، حينها استفاق قلبه، واستيقظ إيمانه، وغلى وجدانه، لا إله إلا الله ما أقوى هذا الدين إذا تغلغل في الأرواح، ولا إله إلا الله ما أنفذ سلطان التوحيد إذا تملك القلوب.

انتهى الواعظ من موعظته ولكن هذا المذنب النادم لم ينته من بكائه، ولن ينتهي، ولماذا ينتهي.. وجاءه زملاؤه يهرعون إليه ـ وهو في غيبوبة البكاء ـ: ما لك يا فلان؟! ما لك يا فلان؟! ماذا أصابك؟!.. سلامتك..!! وما رد عليهم إلا بالبكاء.

إذ اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى مِنْ مَنْ تباكى

أخذوا سلاحه من يديه. وقام يتوكأ على زميله، ودخل غرفته يواصل نحيبه وحسرته، وفجأة انفجر كالبركان يعلن توبته أمام الله تعالى.. أتوب إلى الله، أستغفر الله، يا رب تبت إليك.. غفرانك.. رحمتك يا رب ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ذهب فاغتسل من الجنابة، وخلع ملابسه ولبس ملابس أخرى نقية طاهرة، واستهل أول حياته: حياة الإيمان، بصلاة المغرب ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما انتهت صلاة المغرب ذهب التائب المنيب مع الشيخ الداعية إلى بيت مجاور للمسجد، ولما طاب المجلس اقترب صاحبنا من الشيخ وقص عليه قصة حياته، قصة الضياع، قصة الحرمان، قصة عدم المبالاة، فانطلق الداعية الحكيم يصف له طريق الهداية، وسبيل السعادة، ويعلمه بمبادىء أمور الإسلام، وسنن الصلاة، وطلب من الحاضرين تعليم هذا التائب كتاب الله عز وجل تجويدًا وتلاوة وحفظًا وعملاً.

قال لي هذا التائب: والله ما نمتُ تلك الليلة من فرحي بالهداية والإقبال على الله ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

واستمر هذا المقبل يعيش حياة الإيمان، وتالله لقد قال لي: لقد حفظت القرآن في أربعة أشهر فحسب عن ظهر قلب، لقد عكف على القرآن ينام في الليل والنهار ساعتين فحسب، يقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، وواصل النوافل، وصلح حاله، وانشرح باله، وذهبت غمومه وهمومه، هو اليوم فوق الخمسين من عمره وهو من أعبد من رأيت من الناس، يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، وله أوراد من الأذكار الشرعية، أما دموعه فما أسرعها من دموع، طلق المحيا، بشوش، ترى الولاية ظاهرة عليه[1].

---

(١) «شباب عادوا إلى الله» رقم (١): (ص١٢ ـ ١٥) باختصار.

وانظر ـ رحمك الله ـ كيف تفرح القلوب بنور الهداية، وكيف تسعد وهي تسلك طريق الله عز وجل، الذي حرمت منه دهرًا، فالقلوب خلقت لمحبة علام الغيوب وغفار الذنوب، والقلوب الخالية من محبة الله عز وجل وطاعته كالعين العمياء والأذن الصماء والجسد الميت.

نسأل الله السلامة والنجاة من الخزي والندامة ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

* **تقول السيدة شمس البارودي**: خرجت في سبيل الله لبعض البلاد العربية . . وأمريكا . . والحمد لله سعدت بهذه الرحلات الإيمانية، ولأول مرة أستشعر حلاوة الخروج في سبيل الله . . فلا نبتغي منصبًا ولا أجرًا ولا جاهًا ولا متعة دنيا . . وقد زرت في جاهليتي كل بلاد العالم . . ميامي، فلوريدا، كاراكاس، نيويورك، باريس، لندن، هولندا، اليونان، إيطاليا، وقد كنت لا أسافر إلا بشروطي الخاصة . . فلا أقيم إلا في فندق (خمس نجوم)، ولا أتحرك إلا برعاية، ولكنني لم أشعر وقتها بأي سعادة ولا استقرار؛ لأنها رحلات كانت هباءً منثورًا.

أما الآن فعندما أخرج في سبيل الله لا أعرف بماذا ولا كيف سأسافر، ولا أين سأقيم، لأنني دائمًا في ضيافة الرحمن، وسعادتي لا تدانيها سعادة مادامت النية خالصة لوجه الله[1].

فهذه شهادة من السيدة شمس البارودي، وقد عاشت زمانًا من عمرها في الأجواء الفنية، وما فيها من مال وشهرة وأضواء، فلم تجد طعم

---

(١) «حوارات مع الفنانين والفنانات التائبين والتائبات» السيد أبو داود وليلى بيومي: (ص٣٦ ـ ٣٧)، دار المروة.

السعادة، ثم مَنَّ الله عليها بالإيمان والطاعة والعبادة، فاستشعرت حلاوة الإيمان والسعادة بطاعة الرحمن، فالتائبون والتائبات يشهدون في هذه القضية التي نحن بصددها، وهي هل طريق السعادة هو طريق الإيمان والعبادة؟ أو طريق المعاصي والشهوات، والإعراض عن رب الأرض والسماوات؟

وأختم قصص التائبين بهذه القصة التي سمعتها من أخي الحبيب الداعية الناجح محمد حسان ـ نفع الله به ـ.

والقصة لأحد أصحاب الأعمال والأموال بالولايات المتحدة الأمريكية، كان يملك مجموعة من الشركات، وكان يعمل في أحد هذه الشركات شابٌّ مسلم، وكان صاحب الشركات كلما مَرَّ عليه وجده مبتسمًا، علامات السعادة بادية على وجهه، وكان صاحب الشركات دائم الحزن والاكتئاب، فسأله صاحب الشركات عن سبب هذه الابتسامة التي تنم عن الفرح والسعادة؟ فقال: لأنني مسلم، فقال له: لو أسلمت أجد هذه السعادة التي تحس بها؟ قال: نعم. فأخذه الشاب المسلم إلى أحد المراكز الإسلامية فشهد شهادة الحقِّ، ثم انفجر في بكاء شديد، فَسُئل عن سبب هذا البكاء؟ فقال: لأول مرة في عمري أجد طعم السعادة ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فالقلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، والسعادة سعادة القلوب، والشقاء شقاء القلوب، والقلوب لا تسعد إلا بالله عز وجل ومحبته وعبادته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ففي القلب فقر وفاقة وحاجة واضطرار إلى الله عز وجل، فمهما حصل

العبد من الشهوات والأموال والشهرة، ولم يعرف ربه عز وجل ولم يعبده بأمره ونهيه فالضنك والشقاء، ومهما كان العبد فقيرًا ضعيفًا مريضًا مأسورًا، وقد عرف ربه عز وجل، وتعلق قلبه به، وصار غاية محبوبه ومطلوبه، يستغني بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبطاعته عن طاعة من سواه، ومهما أكمل العبد مراتب العبودية فلا يحب إلا الله أو في الله عز وجل، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا منه، تكتمل في الدنيا والآخرة سعادته، ولا شك في أن الأنبياء الكرام كانوا أسعد الناس في الدنيا، كما أنهم أسعد الناس في الآخرة، فهذا النبي ﷺ يقول: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1]، أي: منتهى راحتي وسعادتي، وكان يواصل وينهى عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل! فيقول: «إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني، وساقٍ يسقيني»[2]، فكان ﷺ أكثر النَّاس حبًّا لله عز وجل، والمحب يشغل بمحبوبه، ويستغني به عن كثير من الطعام والشراب، كما قال بعضهم:

لَهَا أَحَادِيْثُ مِن ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيْهَا عَنِ الزَّادِ

فنسأل الله أن يرزقنا من حلاوة الإيمان، ولذيذ المناجاة والقيام بالقرآن ما يشرح به صدورنا، ويغفر ذنوبنا، ويرزقنا في الدنيا معرفته وحبَّه، وفي الآخرة جنته ورؤيته عز وجل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

• • •

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري: (٤/ ٢٣٨) الصوم، وأبو داود: (رقم٢٣٤٤ ـ عون) الصيام.

(٥) واقع الأفراد البعيدين عن الشرع المتين يُشير إلى أن السعادة في الطاعة العبادة:

فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية، ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس في أحواله وأعماله، وقارنه سوء الحال وفساد في دينه ومآله، فإنَّ الرب إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس، وأظلمت أرجاؤها، وانكسفت أنوارها، وظهرت عليها وحشة الإعراض، وصارت مأوى للشياطين، وهدفًا للشرور، ومصبًّا للبلاء.

المحروم كل المحرم من عرف طريقًا إليه ثم أعرض عنها، أو وجد بارقة من حبه ثم سلبها لم ينفد إلى ربه منها، خصوصًا إذا مال بتلك الإرادة إلى شيءٍ من اللذات، وانصرف بجملته إلى تحصيل الأغراض والشهوات، عاكفًا على ذلك في ليله ونهاره، وغدوه ورواحه، هابطًا من الأوج الأعلى إلى الحضيض الأدنى، قد مضت عليه برهة من أوقاته وكان همُّه الله، وبغيته قربه ورضاه، وإيثاره على كل ما سواه، على ذلك يصبح ويمسي، ويظل ويضحى، وكان الله في تلك الحال وليه؛ لأنه ولي من تولاه، وحبيب من أحبه ووالاه، فأصبح في سجن الهوى ثاويًا، وفي أسر العدو مقيمًا، وفي بئر المعصية ساقطًا، وفي أودية الحيرة والتفرقة هائمًا، معرضًا عن المطالب العالية إلى الأعراض الخسيسة الفانية، كان قلبه يحوم حول العرش، فأصبح محبوسًا في أسفل الحشِّ:

فأصبح كالبازي المنتَّفِ ريشُهُ ... يرى حسراتٍ كلما طار طائرُ
وَقَدْ كَانَ دَهْرًا في الرِّياض مُنَعَّمًا ... على كُلِّ مَا يَهْوَى مِنَ الصَّيْدِ قَادِرُ
إلى أَنْ أَصَابَتْه مِنَ الدَّهْرِ نَكْبَةٌ ... إِذَا هُوَ مَقْصُوصُ الْجَنَاحَيْن حَاسِرُ

فيا معرضًا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم، ويا بائعًا سعادته العظمى بالعذاب الأليم، ويا مسخطًا من حياته وراحته وفوزه في رضاه، وطالبًا من

سعادته في إرضاء سواه، إنما هي لذة فانية وشهوة منقضية، تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها، فرح ساعة لا شهر، وغم سنة بل دهر، طعام لذيذ مسموم، أوله لذة وآخره هلاك، فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كدودة القَزِّ، يسد على نفسه المذاهب، بما نسج عليها من المعاطب، فيندم حين لا تنفع الندامة، ويستقيل حين لا تقبل الاستقالة[1].

فلا شك في أن كل من كان بعيدًا عن طاعة الله عز وجل فهوى في ضيق وضنك وشقاء وبلاء، مهما حَصَّلَ من شهوات الدنيا الدنية ولذاتها الفانية، فمدار السعادة والشقاء على القلوب، والقلوب لا تسعد إلا بعلَّام الغيوب وغفار الذنوب، وقد قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم . .»[2] الحديث.

وإن كان يبدو للناس أن أسباب سعادة الدنيا: المال أو الشهرة أو الشهوات أو الوصول إلى المناصب وأعلى الشهادات، وفي الواقع هي سعادة زائفة بل كل ذلك ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فأكثر الشباب يلهث خلف المال والشهرة والشهوات والمناصب والشهادات، ظنًّا منهم أنهم سيحصلون السعادة المفقودة، والغاية المنشودة.

فتضيع الأعمار النفيسة في طلب الأغراض الخسيسة، ولا يجدون إلا الهم والغم والحزن والضنك، وهكذا كل من أعرض عن شرع الله

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين»: (ص١٨١ ـ ١٨٢) باختصار، ط. المكتبة السلفية.

(٢) سبق تخريجه.

لا يجد إلا الضَّياع والحسرات، والانتكاسات، سواءٌ في ذلك من كفر بالشرع المتين وآمن بالطاغوت، أو أعرض عن الكتاب والسنة ولجأ إلى الهوى والقياس والاستحسان، أو أعرض عن طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ، وانهمك فيما يغضب الله عز وجل، هم والله لا يَجْنُونَ إلا النكد والحسرة والشقاء في الدنيا والآخرة، فما أوضح قوله الله عز وجل: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وهدى الله عز وجل هو الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فمن تعلم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وعمل بهما واهتدى بهديهما فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، فالكتاب والسنة يتكفلان بالسعادة الدنيوية والأخروية، والإعراض عنهما شقاءٌ ونكد وضيق وضنك في الدنيا، وعذاب أليم مقيم في الآخرة، والسعيد من وعظ بغيره، ومن لم يعتبر بغيره صار عبرةً لغيره، والأمثلة كثيرة متضافرة على هذه الحقيقة، ويكفيك أن تنظر في صفحة الحوادث في أي جريدة فترى كيف يعيش من تمرد على شرع الله وفسق عن أمره ونهيه، فجرائم القتل والمخدرات وانتهاك الأعراض وغير ذلك، أكثرها في المعرضين عن الشرع المتين، والذين يسلكون في سبل الشياطين.

وقد ذكرنا في الباب السابق عددًا من التائبين، وكيف كانت حياتهم قبل الهداية لشرع رب العالمين، والذين يَمُنُّ الله عز وجل عليهم بالهداية من جملة المعرضين قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وأكثر هؤلاء المعرضين يستمرون في غيهم وإعراضهم؛ لأن المعاصي يولد بعضها بعضًا، حتى تصير هيئات راسخة لا يستغني عنها العصاة، وإن لم يجدوا فيها لذة، كما قال بعضهم:

وكـــأسٍ شربـــت على لَـــذَّةٍ   وَأُخْـرَى تـداويـتُ مِنْهَـا بِهَـا

وقال بعضهم:

فَكَانَتْ دَوَائي وَهِيَ دَائي بِعَيْنِهِ   كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وإنما يفعلون المعاصي اتقاء الألم عند مفارقتها، فإذا تكاسلوا عنها نزلت عليهم الشياطين تؤزهم إليها أزًّا، وتزعجهم إليها إزعاجًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وما يجده أهل المعاصي ليست سعادة حقيقية، وإنما هي شهوات محرمة تزينها الشياطين لأوليائهم، لا تلبث أن تنقلب عليهم همًّا وشقاءًا، فهي كطعام لذيذ مسموم يتمتعون به لحظات، وفيه هلاكهم وحتفهم، والأمثلة كثيرة جدًّا ـ كما ذكرنا ـ لأن أكثر العالمين في ضلال مبين، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ويقال لآدم يوم القيامة: أخرج بعث النار، فيقول: من كل كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون[1].

وسوف أقتصر على بعض الأمثلة التي تبين أحوال أصحاب الأموال، والشهرة، والشهادات، والمناصب، يظهر بها أن طريق المال والشهرة والشهادات والمناصب لا يمكن أن يكون طريقًا للسعادة.

• • •

---

(١) الحديث رواه الترمذي: (رقم٣١٦٨) التفسير، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن عمران ابن حصين عن النبي ﷺ، وقال في تحقيق «جامع الأصول»: وهو كما قال.

* **قصة كرستينا أوناسيس (وهي مثال لشقاء أصحاب الأموال):**

يقول الدكتور/ ناصر العمر: تلك القصة العجيبة التي تؤكد أن المال مهما زاد وكثر لا يمكن أن يكون وحده سببًا للسعادة، قصة عجيبة تابعت فصولها على مدى خمسة عشر عامًا أو تزيد، وانتهى آخر فصل منها منذ أشهر فقط، إنها قصة: كرستينا أوناسيس.

إليكم قصة هذه المرأة تلك الفتاة اليونانية ابنة المليونير المشهور (أوناسيس) ذلك الذي يملك المليارات، يملك الجزر، يملك الأساطيل، لقد ورثت من أبيها ما يزيد على خمسة آلاف مليون ريال.

فتاة تملك أسطولاً بحريًا ضخمًا، تملك جزرًا كاملة، تملك شركات طيران، وخلاصة القول إن هذه الفتاة كانت قد تزوجت في حياة أبيها برجلٍ أمريكي، وعاش معها شهورًا ثم طلقها أو طلقته.

وبعد وفاة أبيها تزوجت برجل آخر يوناني، وعاش معها شهورًا، ثم طلقها أو طلقته، ثم انتظرت طويلاً تبحث عن السعادة، أتعلمون من تزوجت؟

للمرة الثالثة (أغنى امرأة في العالم على الإطلاق) أتعلمون من تزوجت؟ لقد تزوجت شيوعيًا روسيًا، يا للعجب، قمة الرأسمالية تلتقي مع قمة الشيوعية، وعندما سألها الناس والصحفيون - بشكل خاص - عندما سألوها: أنت تمثلينَ الرأسمالية فكيف تتزوجين بشيوعي؟

عندها قالت: أبحث عن السعادة.

وبعد الزواج ذهبت معه إلى روسيا، وبما أن النظام هناك لا يسمح بامتلاك أكثر من غرفتين، ولا يسمح بخادمة، فقد جلست تخدم في بيتها - بل في غرفتيها - فجاءها الصحفيون - وهم يتابعونها في كل مكان - فسألوها

كيف يكون هذا؟ قالت: أبحث عن السعادة.

وعاشت معه سنة ثم طلقها، بل طلقته.

ثم بعد ذلك أقيمت حفلة في فرنسا وسألها الصحفيون: هل أنت أغنى امرأة؟ قالت: نعم، أنا أغنى امرأة، ولكني أشقى امرأة.

وآخر فصل من فصول المسرحية الحقيقية تزوجت برجل فرنسي.

لاحظوا أنها تزوجت من أربع دول، وليس من دولة واحدة، لعلها تجرب حظها.

أقول: تزوجت بغني فرنسي (أحد رجال الصناعة)، وبعد فترة يسيرة أنجبت بنتًا، ثم طلقها، بل طلقته.

ثم عاشت بقية حياتها في تعاسة وهَمٍّ، وبعد شهور وجدوها ميتةً في شالية في الأرجنتين، لا يعلمون هل ماتت ميتة طبيعية أم أنها قتلت؟ حتى إن الطبيب الأرجنتيني قد أمر بتشريح جثتها، ثم دفنت في جزيرة أبيها[1].

فلو كانت السعادة بالمال لكانت هذه المرأة أسعد امرأة في الدنيا؛ لأنها كانت أغنى امرأة، فالمال شيءٌ والسعادة شيءٌ آخر، لو كانت السكينة والطمأنينة وانشراح الصدر وحلاوة الإيمان والأنس بالرحمن يشترى بالمال لأمكن أصحاب الأموال أن يصيروا أسعد الناس، فالمال يشترى به الشهوات الدنيوية والأعراض الدنية، أما السكينة والطمأنينة والرضا والقناعة وغير ذلك فهي أغلى من أن تشترى بمال الأرض كله، وإنما يحصلها العبد بإيمانه بالله عز وجل وعمله الصالح.

---

(١) «السعادة بين الوهم والحقيقة» للدكتور ناصر العمر: (ص١٣ ـ ١٩) باختصار، ط. دار الصفوة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى شقاء أصحاب الأموال الذين لا يتقون الله عز وجل في جمعها وإنفاقها وإخراج حق الله عز وجل منها، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، أي: يعذبهم بجمعها فيواصلون الليل والنهار في تحصيلها، ويبخلون بإنفاقها، وهم كافرون بمنع حق الله عز وجل فيها. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

وإنما يسعد أصحاب الأموال إذا جمعوا مع المال العلم النافع، كما قال النبي ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلمًا فهو يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله عز وجل فيه حقًّا فهذا بأحسن المنازل عند الله ...»[1] الحديث. وسوف يأتي كيف يسعد المؤمن بالإنفاق في سبيل الله عز وجل.

وقال ﷺ: «لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[2].

أما الشهرة فلا يسعد العبد بها على كل حال، فليس للعبد أن يسعى للشهرة أو يطلبها، أو تكون من أهدافه قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

---

(١) رواه الترمذي: (٩/ ١٩٩، ٢٠٠ ـ عارضه)، أبواب الزهد، وقال: حسن صحيح، وأحمد: (٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، وابن ماجه: (رقم٤٢٢٨) الزهد، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري: (١/ ١٦٥) العلم، ومسلم: (٦/ ٩٧، ٩٨) صلاة المسافرين، والترمذي: (٨/ ١٢١ ـ عارضه) البر والصلة.

وكان السلف ـ رضي الله عنهم ـ يكرهون الشهرة أشد الكراهة، ويفرون منها، كان أويس وغيره من الزهاد إذا عرفوا في مكان ارتحلوا عنه.

وقيل: إن إبراهيم بن أدهم في البستان الفلاني، فدخل الناس يدورون ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم؟ فظل يدور معهم ويقول: أين إبراهيم بن أدهم؟

فالشهرة على كل حال ليست من أسباب السعادة، بل قد تكون من أسباب الضيق والعنت والمشقة، فكيف إذا كانت الشهرة في اللعب بالكرة أو الغناء أو التمثيل.

تقول الممثلة (سابقًا) التائبة نسرين: كان يومي يضيع دون إحساس بالسعادة، ودون أن أشعر بالسلام، والآن ليس لدي وقت كافٍ لأن هناك أمورًا كثيرة نافعة، يجب اللحاق بها، لقد وجدت السلام الداخلي[1].

وتقول الممثلة (سابقًا) التائبة هناء ثروت ـ ردًّا على سؤال ابنتها: وهل كنت سعيدة حقًّا يا أمي؟ فقالت: ابنتي الحبيبة، لا تدري بأني كنت قطعة من الشقاء والألم، فقد عرفت وعشت كل ما يحمل قاموس البؤس والمعاناة من معانٍ وأحداث[2].

يقول الدكتور/ ناصر العمر:

أهل الفن حياتهم أسوأ حياة يعيشها البشر: فشل أسرى، مخدرات، انحلال، انعدام حياء، موت فضيلة.

وأقصد بأهل الفن: أهل الغناء والطرب والتمثيل.

---

(١) «التائبون» ـ توبة الممثل محسن محيي الدين وزوجته نسرين: (ص٢٣٨).

(٢) «التائبون» ـ توبة الممثلة هناء ثروت: (ص١٤٦).

ولا أقول هذا من عندي، بل هو من مذكراتهم التي تعج بها الصحف صباح مساء، خذوا على ما أقول ثلاث وقائع:

الواقعة الأولى: (**أنور وجدي**) زوج الممثلة اليهودية (ليلى مراد)، هذه الزوجة التي قالت عنه في مذاكراتها: إن زوجي كان ممثلاً بسيطًا، فقال: أتمنى أن أملك مليون جنيه حتى ولو أصبت بمرض. فقلت له: ما ينفعك المال إذا جاءك المرض؟ فقال: أنفق جزءًا من المال في علاج المرض وأعيش في بقيته سعيدًا، فملك أكثر من مليون جنيه، وابتلاه الله بسرطان في الكبد، فأنفق المليون جنيه وزيادة ولم يجد السعادة، حتى إنه كان لا يأكل إلا شيئًا يسيرًا من الطعام، فهو ممنوع من أكل كثير من الأطعمة، وأخيرًا مات بهذا المرض حسيرًا نادمًا.

الواقعة الثانية: (**نيازي مصطفى**) وهو من كبار المخرجين، لكنه عاش حياته في شقاء وتعاسة، وعندما بلغ السبعين من عمره، وجدوه قد قتل في منزله، ووجدوا أنه في تلك الليلة التي مات فيها، قد أقام حفلة صاخبة شاركه فيها أكثر من عشر فتيات، وفي الصباح وجده: (أثرًا بعد عين).

فقد وجدوه قتيلاً.

انظر إلى هذه الحياة: ذعر، وسُكْر، وخيانة، مات على هذه الحالة المأسوية، نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

الواقعة الثالثة: (**عبد الحليم حافظ**)، الرجل الذي عاش حياته مريضًا وحيدًا من غير زوجة ولا ولد، إلى أن اختطفه الموت، وأنهكه المرض بعد الخمسين بقليل، في قمة الشقاء.

فالسعادة ـ إذن ـ ليست إلا بريقًا زائفًا تشع به أعينهم لتوهم الآخرين

بذلك، مع أنهم يعيشون في الواقع قمة الشقاء والتعاسة[1].

فأهل الشهرة في الدنيا من أصحاب المعاصي، والذين يشتهرون على حساب دينهم ونزاهتهم، وعلى حساب غفلة الناس وجهلهم، يظن الناس أنهم أسعد الناس، وهم في الواقع أكثرهم هَمًّا وغمًّا وشقاء، أين هؤلاء من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨]، وممن قال عز وجل عنه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

فبريق المال والشهرة زائف زائل لا يسعد به العبد في الدنيا ولا في الآخرة، إلا من عمل في ذلك بطاعة الله عز وجل، وأراد بعمله الآخرة.

قد يظن الناس أن السعادة في أن يصير طبيبًا مشهورًا، أو مهندسًا ناجحًا، أو أستاذًا جامعيًا، فيصير هدف الطالب أن يصل إلى هذه الشهادات الدنيوية حتى يحصل السعادة، ولا أريد بذلك أن أهبط بهمم الطلاب عن طلب العلوم التجريبية، ففي تحصيلها منافع للفرد والمجتمع، ومهما كان الداعية المسلم في منزلة مرموقة فإن ذلك أدعى لقبول دعوته، والانتفاع بكلمته، ولكن أخلص لكم النصيحة هذه الشهادات ليست سبيلاً للسعادة

---

(١) «السعادة بين الوهم والحقيقة»: (ص٢١ ـ ٢٣) بتصرف، وقد أذاعت بعض الإذاعات مكالمة تليفونية سجلت منذ أعوام بين عبد الحليم حافظ وما يطلق عليه الممثل العالمي عمر الشريف، أخبرني بها أحد إخواننا الكرام يقول فيها عبد الحليم حافظ: يا عمر، أنت سعيد؟ فقال له عمر الشريف: أنا ما ذقت طعم السعادة.
فقول عبد الحليم حافظ لعمر الشريف: أنت سعيد؟ يدل على أنه ـ أيضًا ـ كان محرومًا من السعادة، وهذا من باب (وشهد شاهد من أهلها).

التي يحلم بها الطلاب، وهذه قصة ساقها كذلك الدكتور/ ناصر العمر، تبين زيف الشهادات في تحصيل السعادة المنشودة:

يقول ـ حفظه الله ـ: إذن أين السعادة؟ ربما كانت في نيل أعلى الشهادات، في أن يصبح الإنسان (دكتورًا) لكن أقول لكم بكل ثقة: لا.

ولنقف قليلاً مع ما يبرهن على هذا بجلاء ووضوح.

* **إليكم هذه القصة الحديثة التي نشرتها مجلة اليمامة:**

طبيبة تصرخ، تقول: خذوا شهادتي وأعطوني زوجًا!!

اقرءوا ما تقوله هذه المرأة حسب ما سطرت بقلمها، حيث جاء من ضمن كلامها:

السابعة من صباح كل يوم وقت يستفزني، يستمطر أدمعي لماذا؟ أركب خلف السائق متوجهة صوب عيادتي [ثم تستدرك] بل مدفني، بل زنزانتي، تعبر عن عيادتها التي طالما كافحت حتى تصل إليها تعبر عنها بـ (المدفن) تعبر عنها بـ (الزنزانة) ثم تقول: وعندما أصل مثواي بدلاً من أن تقول: أصل إلى مكتبي ومقر سعادتي تقول: أصل مثواي.

ويتواصل الحديث: أجد النساء بأطفالهن ينتظرنني، وينظرن إلى معطفي الأبيض وكأنه بردة حريرة فارسية، هذا في نظر الناس وهو في نظري لباس حداد لي.

ثم تواصل قولها: أدخل عيادتي، أتقلد سماعتي، وكأنها حبل مشنقة يلتف حول عنقي. العقد الثالث يستعد الآن لإكمال التفافه حول عنقي [أي: بلغت الثلاثين] والتشاؤم ينتابني على المستقبل.

[وأخيرًا تصرح وتقول]: خذوا شهادتي، ومعاطفي، وكل مراجعي، وجالب السعادة الزائفة [تعني المال] وأسمعوني كلمة (ماما).

[ثم تقول هذه الأبيات]:

لقد كنتُ أرجو أن يقالَ طبيبةٌ ... فقد قيل فما نَالَني مِن مَّقَالِهَا

فَقُل لِلَّتي كانت تَرَى فِيَّ قُدْوَةً ... هِيَ اليَومَ بَيْنَ النَّاسِ يُرثَى لِحَالِهَا

وَكُلُّ مُنَاهَا بَعْضَ طِفْلٍ تَضُمُّهُ ... فَهَلْ مُمْكِنٌ أَن تَشْتَرِيْهِ بِمَالِهَا

التوقيع: دكتورة س.ع.غ الرياض[1]

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف يخطىء العباد طريق السعادة، فيلهثون خلف المال أو الشهرة أو الشهادات الدنيوية، فإذا حصلوها حصلوا الشقاء والنكد، فيضيع العمر الشريف في طلب الغرض الخسيس، فطوبى لمن هداه الله عز وجل لطريق السعادة الحقيقية فحصل أسبابها، وسلك طريقها فسعد في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من السعادة الدائمة، والنعيم المقيم في جوار رب العالمين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* **وهذه قصة مشابهة يرويها الدكتور/ عمر الأشقر يقول ـ حفظه الله ـ:**

نشرت صحيفة الأهرام المصرية تحت عنوان: (أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج)، قالت: أستاذة جامعية في انجلترا، وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها تلقي خطبة الوداع بمناسبة استقالتها من التدريس.

قالت الأستاذة: ها أنا قد بلغت الستين من عمري، وصلت فيها إلى أعلى المراكز، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري، وحققت عملاً كبيرًا في المجتمع، كل دقيقة في يومي كانت تأتي عَلَيَّ بالربح، حصلت على شهرة كبيرة، وعلى مالٍ كثيرٍ، أُتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله، ولكن

(١) «السعادة بين الوهم والحقيقة»: (ص٢٤ ـ ٢٦) بتصرف واختصار.

هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات، لقد نسيت في غمرة انشغالي في التدريس والتعليم والسفر والشهرة أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة.

نسيت أن أتزوج وأن أنجب أطفالاً، وأن أستقر.

إنني لم أتذكر ذلك إلا عندما جئت لأقدم استقالتي، شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئًا في حياتي، وأن كل الجهد الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباءً، سوف أستقيل وسيمر عام أو اثنان على استقالتي وبعدها ينساني الجميع في غمرة انشغالهم بالحياة، ولكن لو كنت تزوجت وكونت أسرة كبيرة، لتركت أثرًا كبيرًا وأحسن في الحياة.

إن وظيفة المرأة هي أن تتزوج وتكون أسرة، وأي مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها بالذات، إنني أنصح كل طالبة أن تضع هذه المهام أولاً في اعتبارها وبعدها تفكر في العمل والشهرة.

إن هؤلاء المساكين يضيعون أعمارهم ولا يدركون الحقيقة إلا في غروب العمر، والعجب من فتيات الإسلام اللواتي يتابعن هؤلاء في التيه على غير هدى، وقد دلنا الله على الطريق، وبَيَّنَ لنا السبيل، والسعيد من وعظ بغيره، فإلى أين يا ابنة الإسلام[١].

فالسعادة ليست في المال ولا الشهرة ولا الشهادات، فهل السعادة في المناصب العالية، فالأمراء والوزراء هم السعداء، قال النبي ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»[٢].

---

(١) «جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة»: (ص٢٩ ـ ٣٠)، ط. دار النفائس ومكتبة الفلاح.

(٢) رواه البخاري: (١٣/ ١٣٤) الأحكام، والنسائي: (٨/ ٢٢٥، ٢٢٦) آداب القضاة.

ولا شك في أن أصحاب المناصب هم أكثر الناس هَمًّا وغمًّا وحزنًا، وهم معرضون كذلك لزوال مناصبهم والطرد والتشريد خارج ديارهم، ومن أمثلة هؤلاء.

* **شاه إيران:**

الرجل الذي أقام حفلاً ليعيد فيه ذكرى مرور ألفين وخمسائة سنة على قيام الدولة الفارسية، وأراد أن يبسط نفوذه على الخليج ثم على العالم العربي بعد ذلك، ليلتقي مع اليهود.

ذلك الرجل الذي كان يتغنى ويتقلب كالطاووس، كيف كانت نهايته؟!

لقد تشرد!! طرد!! لم يجد بلدًا يأويه، حتى أمريكا التي كان أذل عميل لها.

وظل على هذه الحال حتى مات شريدًا طريدًا في مصر، بعد أن أنهكه الهم وفتك به المرض.

أما أولاده وأهله وحاشيته فقد أصبحوا أشتاتًا متفرقين في عدة قارات[1]!!

وقالت مجلة أمريكية اسمها: (دوسييه) نقلاً عن أحد الأطباء الذين أشرفوا على علاج الشاة الراحل أثناء مرضه: إن الشاه مات متأثرًا بمرض الإيدس، وأنه مَرَّ بنفس الأعراض التي يمر بها المرض الجنسي الذي كشف حديثًا[2].

---

(١) «السعادة بين الوهم والحقيقة» للدكتور ناصر العمر: (ص٢٨).

(٢) «المجتمع»: (٢٠/٢٨) نقلاً عن «أفول شمس الحضارة الغربية»: (٥/٤٨) من نافذة الشذوذ الجنسي، ط. دار السلام.

وما أجدر هؤلاء بقول المفرط النادم يوم القيامة: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَّلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩].

وبقوله عز وجل: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

فأهل الجاه والسلطان والمناصب المعرضين عن شرع الله عز وجل هم أشقى الناس في الدنيا والآخرة، إن لم تتداركهم رحمة الله عز وجل.

وهذا مثال آخر لأصحاب المناصب الذين سادوا ثم بادوا وأذلهم الله عز وجل في الدنيا قبل الآخرة، وجعلهم عبرة لمن يعتبر، وهو **الإمبراطور بوكاسا**.

قال الدكتور/ عمر الأشقر:

إفريقيا الوسطى دولة فقيرة، كثير من أهلها لا يجدون ما يقيم أودهم، وهم يعملون ليل نهار لتحصيل الرزق، ولم يهتم رئيس تلك الدولة الفقيرة بحال شعبه المنكود، وإنما ركز اهتمامه على أن يصنع له ولأسرته أمجادًا تحاكي مجد نابليون، لا بالقتال والحروب وإعداد الجيوش، وإنما بتنصيب نفسه رئيسًا مدى الحياة، ثم بتنصيب نفسه إمبراطورًا.

وقد كانت مراسيم تتويج الإمبراطور بوكاسا الأول إمبراطور إفريقيا الوسطى شبيهة بمراسيم تتويج الإمبراطور نابليون، لقد استقدم (١٢٠) موسيقارًا ليعزفوا له .. وألبس حرسه ثيابًا شبيهة بثياب فرسان الطاولة المستديرة، واختار زوجته (كاترين) لتكون (جوزفين) أخرى، واختارت الإمبراطورة ثيابها من (أزياء لافان الباريسية) وبلغ طول عباءتها خمسة أمتار، حملتها عشر فتيات، أطلقت عليهن لقب (وصيفات الشرف)، وقد بلغ وزن فستانها (١٩) كيلوغرامًا، أما وزن ثياب الإمبراطور (بوكاسا) فقد بلغت (٣٨) كيلوغرامًا.

واستقدم الإمبراطور (بوكاسا) الرسام الألماني (هانزلينوس) بطائرة خاصة نفاثة مرتين في شهر واحد لرسم الخطوط الأولى للوحة في قاعة العرش، وأمر الإمبراطور بإطلاع الرسام الألماني على كل ما يحتاج إليه من ثياب التتويج إلى التاج الإمبراطوري وغير ذلك من مستلزمات الصورة التاريخية لصاحب الجلالة.

قد يتقبل الناس مثل هذا البذخ والطغيان من زعماء دولة قوية ثرية، ولكن هذا الطغيان والتعالي من رئيس دولة فقيرة يكون مضحكًا ومخزيًا.

لقد طار الزعيم (بوكاسا) عن عرشه في لمحة عين، لقد خرج من بلاده في مهمة رسمية، واستلم الذين كانوا عماد حكمه الحكم بعده، وبقي عرشه وتاجه وصولجانه هناك بعيدًا عنه، وأصبح (بوكاسا) العظيم حكاية تروى[1].

قال نابليون في (سانت هيلينا): لم أعرف ستة أيام سعيدة في حياتي.

وقال هشام بن عبد الملك ـ الخليفة ـ: عددت أيام سعادتي فوجدتها ثلاثة عشر يومًا.

وكان أبوه عبد الملك يتأوه ويقول: يا ليتني لم أتولَّ الخلافة.

إن الدنيا إذا خلت من الإيمان فلا قيمة لها ولا وزن ولا معنى.

قال إقبال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى دينا
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا[2]

---

(١) «جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة»: (ص٨٥ ـ ٨٦) باختصار.

(٢) كتاب «لا تحزن» لعائض القرني: (ص٨٨ ـ ٨٩) باختصار، توزيع مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

فهذا حال أهل الجاه والسلطان، فهم في وادٍ، والسعادة في وادٍ آخر، ثم هم يعذبون بمفارقة المال والجاه والسلطان فيكون ذلك عذابًا معجلاً لهم في الدنيا قبل الآخرة إلا من رحم ربك، وقليل ما هم.

• • •

(٦) واقع المجتمعات الغربية التي تدين بالكفر والإباحية يشير إلى أن السعادة في الطاعة والعبادة.

لا شك في أن كثيرًا من الشباب البعيد عن دينه، الجاهل بأسباب السعادة في الدنيا والآخرة يبهرة الغرب الكافر، ويظن أن شباب هذه البلاد التي تدين بالإباحية والكفر برب البرية يعيشون قمة السعادة؛ لأنهم يملكون الأسباب الموصلة إليها في نظرهم القاصر، فهم في أغنى بلاد العالم، وعندهم من الشهوات والحريات والإباحية والضياع ما هو كفيل بإسعادهم، فهل الأمر كما يظن هذا الشباب القاصر، أم أن الواقع يشير إلى أنهم في قمَّةِ الشقاء والتعاسة، وهذا ما نشير إليه في هذا الباب، مدعمين أقوالنا بالإحصائيات والأرقام، وشهادة الكفار الذين أدركوا خطر ما هم فيه، وإن كانوا لا يعرفون طريق النجاة والسعادة، ويتلخص شقاء هذه المجتمعات في عدة مظاهر، تعج وتفج بها المجتمعات الكافرة:

١ ـ الاكتئاب والاضطرابات النفسية.

٢ ـ الانتحار.

٣ ـ الإغراق في شرب الخمور وسائر المخدرات.

٤ ـ السعار الجنسي والشذوذ والأمراض الجنسية الفتاكة.

٥ ـ الجرائم.

وسوف نلقي الضوء على هذه المظاهر حتى يظهر لكل منصف حقيقة الحضارة الغربية الزائفة، ويحصل مقصود الكتاب ولب الخطاب، وهو أن سعادة الأفراد والمجتمعات في طاعة الله عز وجل خالق الأرض والسماوات، ويظهر كذلك حاجة الغرب الكافر إلى الإسلام، ليأخذ بهم من الظلمات إلى النور، وأن الغرب الكافر لو استمر على هذه الأحوال

النكدة، سوف تكون نهايته في القريب العاجل، وتكون الدولة للإسلام، والجولة للإسلام.

١ـ الاكتئاب والاضطرابات النفسية :

يقول الأستاذ مصطفى غزال:

رغم أن الشعوب المتحضرة الغربية تتمتع بقسط وافر من الحرية لم تحصل على السعادة التي تنشدها، فالمرأة متوفرة للرجل، والمرأة تملك حريتها التامة في الاستمتاع بجميع الملذات، والخمور والمخدرات منتشرة في كل مكان.

ومع كل هذا فهناك مرض لا يخطر على بالٍ يدب في جسم هذه الشعوب، ويقضي على سعادتهم، وهو مرض الاكتئاب، وفي مجلة المجتمع ما يلي: (آخر تقرير منظمة الصحة العالمية تبين أن نسبة المصابين بالاكتئاب النفسي تصل إلى ٥٪ من سكان العالم، وأن هذه النسبة ترتفع في بريطانيا إلى ١٥٪، وفي الولايات المتحدة إلى ٢٠٪). «المجتمع»: (٦١٧/ ٢٦).

ويقول الدكتور/ مالك بدري:

(أكبر الزيادات في نسبة الانتحار بين شباب العقد الثالث، ويعزى ذلك إلى ازدياد الاضطرابات النفسية بينهم بشكل عام، وإلى مرض الاكتئاب النفسي والعقلي بشكل عام، ولم تستطع الثورة الجنسية ولا الانغماس في المسكرات والمخدرات التي يصرف عليها الشعب الأمريكي بلايين الدولارات كل عام. ولم تستطع العقاقير المهدئة التي يبتلع منها الأمريكيون مئات الأطنان كل عام لم يستطع كل هذا أن يأتي بالسعادة النفسية المنشودة). «المجتمع»: (٢١٠/ ٢٤).

وتقول مجلة «التضامن» عن مرض الاكتئاب:

(أخذ بالانتشار في أوساط المثقفين بأوربا في أوائل السبعينات، وانتقلت

عدواه إلى الولايات المتحدة، وعلى لوائح الإحصاءات يرتسم الرقم المخيف ٣٥ مليونًا يعانون من مرض الحزنِ والاكتئاب، وفي لغة العامة «جنون».

وختم الكاتب مقاله بهذا السؤال العجيب الذي يدل على أن مرض الاكتئاب لم يصل حتى الآن إلى العالم العربي برغم وجود المصائب والكوارث، والسبب في ذلك راجعٌ إلى أن الدين الإسلامي أكبر علاج لداء الاكتئاب، فلا نحتاج بعون الله وفضله إلى حبوب منع الحزن، وإلى سائر عقاقيرهم الصيدلية، فإن القرآن كفل لنا العلاج الوافي والدواء الشافي، فلنطرح إلى هؤلاء الاختصاصيين في علم النفس نظرياتهم في وجههم، لنردهم على أعقابهم خاسرين، ونصيحتنا لهؤلاء الاختصاصيين اعتناق الإسلام ليأخذوا منه العلاج لهؤلاء المرضى)[1].

ولا شك في أن الواقع المؤلم في أمريكا وأوربا الغربية سببه أنهم نبذوا الدين وراءهم ظِهريًا، ولم يطلبوا الهدى من مشكاة الوحي الصادق، وساروا خلف الفلاسفة والوجوديين والملاحدة من الكتَّاب الغربيين، فأثمر ذلك هذه الثمرات الحنظلية، وصدق فيهم قول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

قال الدكتور/ عبد الله عزام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت عنوان مأساة الفكر الغربي:

إن المتتبع لكتابات الكتَّاب الغربيين وخاصة الكتاب الطليعيين، أو رواد مسرح اللامعقول من الوجوديين ليرى العجب العجاب من القلق والضنك من خلال أسطرهم التي تَفج بالآلام وتعتصر بالأسى.

(١) «أفول شمس الحضارة الغربية ـ من نافذة الجرائم» لمصطفى فوزي غزال: (ص١١٩ ـ ١٢٤) باختصار، ط. دار السلام، بتصرف.

إن اليأس، والقلق، والأسى، والألم، والصدمة، والملل، والعبث، والتمرد، والتمزق، والمأساة، والشقاء.

هذه العبارات لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة من صفحات هؤلاء الكُتَّاب.

يقول كامي: ينبغي ألا تؤمن بشيء في هذا العالم سوى الخمر، إن صيحته هي: الموتُ للعالم، حطموا كل شيء، يجب أن نلغي كل شيء، الإلغاء والإطاحة هو إنجيلي.

ويقول أرثرميللر الأمريكي: إن أكثر الأماكن براءة في بلدي هو مصحة الأمراض العقلية، وكمال البراءة هو الجنون.

ويقول سلاكرو (الكاتب الفرنسي): إن الآلهة لا عمل لها إلا أن تعبث بحطام الإنسان.

يقول يونسكو الفرنسي: الواقع كابوس مؤلم لا يطاق.

والموت هو مشكلة المشاكل في نظر الكتَّاب الغربيين، فالموت يثير الرُّعْبَ لأنه واقعة فظيعة في حد ذاتها، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثًا وسخفًا كما يقول صمويل بكت في كتابه (الأيام السعيدة).

فاليأس والعبث والألم والقلق عنوان الحياة الغربية.

يرى هيدجرا أن الحياة الحقة تكون في اليأس.

أما سارتر، فيرى أن الحياة الحقة تكون فيما وراء اليأس.

بل يقول سارتر: الإنسان في صميمه قلق.

أما كير كجارد (رائد الفلسفة الوجودية) فيقول: إن الوجود معناه: أن تُعَانيَ اليأس والقلق حتمًا، إن من يختار اليأس يختار ذاته في قيمتها الأبدية، ولذا نجده قد حاول الانتحار مرارًا.

هذه هي الملامح الرئيسية للعالم اليوم، والتي تبرز واضحة مجسدة في معطيات كبار الكتاب والمفكرين والأدباء، فوضى تأخذ بخناق العالم تبعثر كل ما تبقى فيه من نظام، وتسعى إلى تمزيق بقايا خيوط العنكبوت من القيم الغربية، والإنسان اليوم يرى هذا الإعصار الفوضوي المأسوي يحيق بالإنسانية، ويدمر كيانها، ويسحق آدميتها، آلية طاغية عارمة حولت الإنسان إلى آلة، وسحقت كل تجارب الروح والوجدان، وجماعية صماء قضت على كل مطمع بالتفرد والنبوغ والإبداع، واختلاف رهيب بين كفتي المادة والروح.

وكلمة أوسبورن الكاتب الإنجليزي في مسرحيته (المسافر) هي خير تعبير عن حالة الإنسان الغربي: (نحن موتى، مكدودون، مضيعون، نحن مكيدون، مجانين، نحن حمقى نحن تافهون).

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كل هذا نتيجة:

١ ـ الفراغ الهائل بعد نبذ الدين نهائيًا عن الحياة.

٢ ـ العزلة عن الإسلام والمجتمع والحياة الفردية القاتلة.

٣ ـ فقد المثل الأعلى في الحياة، والهدف من العيش[١].

---

(١) «الإسلام ومستقبل البشرية» لعبد الله عزام، وأكثره بتصرف من كتاب «فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر»: (ص٢٢ ـ ٢٧) باختصار.
وقارن بين أقوال هؤلاء الفلاسفة التي تبين شقاءهم، وبين أقوال الصالحين المذكورة آنفًا تعرف نعمة الإسلام ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

٢ ـ المظهر الثاني من مظاهر شقاء الغرب الكافر (الانتحار):

ولا شك في أن الانتحار أدل دليل على الشقاء؛ لأن الذي يقدم على الانتحار قد اشتد به الضنك والشقاء واليأس، فظن أن ما هو فيه ليس بعده شقاء، فهو يريد أن يتخلص من الضنك الذي يعانيه، ولعله يجد راحة بعد الموت، وإنما هو ينتقل من شقاء إلى شقاء، ومن ضنك الحياة الدنيا إلى ضنك القبور، وهو أشد، ومن عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة، والآخرة أدهى وأمر.

ولقد أقلق كثرة الانتحار علماء الاجتماع في هذه الدول المتحضرة، الذي أصبح يفوق عدد القتلي وخسائر الحروب.

تقول «المجتمع»: (وقد بلغت ظاهرة الانتحار حدًّا أقلق القائمين على شئون كل مجتمع، والمهتمين بالمشاكل الاجتماعية، وخاصة في الدول التي تسمي نفسها متقدمة، حيث الحياة المعقدة تتمثل في كل صورها وألوانها بلغة الأرقام نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية تحظى بنصيب الأسد في عدد المقدمين على الانتحار بسبب الفشل، فقد بلغ عددهم في خلال عام واحد ما يقارب الربع مليون شخص، أي: بمعدل ١٢٠ شخصًا يوميًّا، وهذا بدون شك يفوق عدد جرائم القتل التي تقع في نفس الفترة الزمنية.

أما في بريطانيا وحدها فقد بلغ عدد ضحايا الانتحار ٤٠ ألف شخص خلال عام واحدٍ، وقد أصدرت المنظمة العالمية للصحة تقريرها الأخير في هذا المجال، وذكرت أن هيئاتها قد سجلت ثلاثة ملايين ونصف مليون حادثة انتحار خلال عام ١٩٦٩/ ١٩٧٠م). «المجتمع»: (٤٤/ ٢٤).

(إن إحصائيات الانتحار في الدول الإسكندنافية في الآونة الأخيرة، أذهلت المفكرين الاجتماعيين، فالمعروف أن هذه الدول من أرقى بلاد العالم

من حيث الرفاه الاقتصادي والاجتماعي، ويشتهر أهلها ظاهريًا بدماثة الخلق والوداعة، إلا أن بعض المفكرين يعزون هذه الظاهرة إلى الحرية الجنسية الكبيرة جدًا في تلك البلاد). «المجتمع»: (٢٨٥/ ٤٨).

تقول «المجتمع»: (وهكذا نجد أن أكبر نسبة للانتحار هي في أكثر الدول رقيًا ماديًا كالسويد وسويسرا، وترى الوجودية تشجع على الانتحار للخلاص من الحياة التي هي عبث وسأم وغثيان.

ولقد كان آخر إنجاز لهذا الاضطراب في بلدان الكفر هو ذلك الانتحار الجماعي الذي صدم العالم ببشاعته حيث أشرف زعيم جماعة (هيكل الشعب) الكاهن (جيمس جونز) على انتحار حوالي تسعمائة شخص من أتباعه بالسم، وأنبأهم بقراءات من رسالة بولس الرسول، ثم أطلق الرصاص على صدغه فلحق بهم إلى لعنة الله وغضبه.

وثبت اتصال زعيم الجماعة بالمخابرات السوفيتية والحزب الشيوعي في عويانا.

وهناك جماعة أخرى ظهرت في بريطانيا شعارها (تخلص من حياتك بإرادتك وبطريقة سهلة)، وتلقى هذه الجماعة رواجًا ضخمًا، حتى تضاعف عدد أعضائها خلال شهرين من ٢٠٠٠ إلى أربعة آلاف، خصوصًا بعد إصدار كتاب جديد يتضمن نصائح عن أفضل طرق الانتحار). «المجتمع»: (٤٧٠/ ٢٤).

وقد اشتهر تاريخ الأسكندرية بالانتحار الأناني، وكان فيها فيلسوف يوناني يدعى (هيجيسباس) ويلقب: (المبشر بالموت)، وكان يؤمن بأن الهدف الوحيد في حياة الإنسان هو البحث عن اللذة والفرح، ولكن كون السعادة مستحيلة، أي: أنها لا تدوم، فقد أخذ يقنع الجميع بأن الموت هو

أفضل حالة يستطيع المرء التوصل إليها، واقتنع كثيرون فسببت فلسفته كارثة وأخذ تابعوه ينتحرون بالمئات إلى أن طرد (المبشر بالموت) من الأسكندرية[1].

فانظر إلى قيمة الحياة وتفاهتها بلا هدف ولا غاية، وكيف يكون حال من انسلخ من الدين، وخلا قلبه عن محبة الله رب العالمين، كيف يصير الإنسان أخس من الحيوانات. وصدق الله العظيم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل المسلم الذي يبتلى بالسفر إلى بلاد الكفار ومخالطتهم يحس بالظلمة في قلبه والكآبة، ويفقد ما كان يجده من سعادة في بلاد المسلمين، فمن باب أولى كيف يجد الكفار السعادة مع الكفر والإباحية.

ورد في جريدة الشرق الأوسط عدد (٥٨٢٣) بتاريخ ١٤١٥/٦/٤هـ ما يلي:

ينتحر ٣٠٠ ضابط شرطة سنويًا في أمريكا منهم عشرة في نيويورك وحدها، ومنذ عام ١٩٨٧م يتزايد عدد ضباط الشرطة المنتحرين هناك.. وهي ظاهرة أقلقت السلطات، وقام الاتحاد الوطني لضباط الشرطة ببحثها. لقد وجد الاتحاد أن أبرز أسباب انتحار الضباط هو توتر الأعصاب الدائم الذي يعيشون فيه، فهم مطالبون دائمًا بالثبات في الأزمات وتحمل الضغوط المتزايدة مع ارتفاع نسبة الجريمة وتحمل الآلام الناتجة عن التعامل مع المجرمين ورؤية جثث الضحايا من أطفال ونساء وعجائز.

---

(١) «أفول شمس الحضارة الغربية ـ من نافذة الجرائم»: (ص١٠٤ ـ ١١٤) باختصار وتصرف.

والسبب الثاني هو وجود الأسلحة معهم بشكل دائم، فهي تساعدهم أو تسهل لهم عملية الانتحار، وقد وجد أن ثمانين بالمائة من حوادث انتحار الضباط تتم بسلاحهم الخاص وفي ثلاثة أيام متتالية انتحر ثلاثة ضباط كل منهم بواسطة مسدسه الميري[1].

فما أرخص الحياة بغير عقيدة، وما أتفه الإنسان بغير إيمان، لا يعرف العبد لنفسه هدفًا ولا رسالة، وليس عنده صبر ولا احتساب، فكيف يصبر على البلاء ويرضى بمر القضاء، وقد أخبرني أحد الإخوة الذين يعيشون في بورتلاند إحدى الولايات الأمريكية أن نسبة الانتحار كبيرة في هذه الولاية، فسألته عن سبب ذلك فقال: كثرة الأمطار. ولا شك في أن السبب الرئيسي هو الكفر بالعزيز الغفار، وإنما يقدم الكافر والفاسق على الانتحار ليأسه وضيق صدره فيتعجل بذلك عذاب النار. فالحمد الله على نعْمَةِ الإيمان.



(١) نقلاً عن «لا تحزن» لعائض القرني: (ص٢٠٥).

٣ـ المظهر الثالث من مظاهر شقاء الغرب الكافر الإغراق في شرب الخمر وسائر المخدرات.

والخمر هو ما خامر العقل، أي: غطاه، وإنما يلجأ ناقص العقل والدين إلى شرب الخمر أو المخدرات عمومًا حتى يغيب عن واقعه النكد الذي يعيش فيه، فكما أن من يلجأ للانتحار يتخلص من حياته النكدة إلى الأبد، فهذا يريد أن يغيب عن الشقاء الحادث له ولو إلى حين، والعقل من أعظم نعم الله عز وجل على العباد، فخمر العقل كفر بهذه النعمة العظيمة، ويستوي عند ذلك الرجل العاقل بالمجنون الذي رفع عنه القلم لجنونه، والإسلام حَرَّم الخمر وما أسكر كثيره فقليله حرام، وهذا من حكمة التشريع؛ لأن القليل يجر إلى الكثير، والخمر هي أم الخبائث، ولعن فيها عشرة؛ لأنها تجر إلى غيرها من الكبائر، نعوذ بالله من الخذلان وغضب الرحمن، وكثير من الفساق يجمع بين شرب الخمر والزنا أو شرب الخمر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

والعجيب أن رجال الكنيسة يشربونها، ويحتجون على شربها بنصوص من أناجيلهم المحرفة، ويعتقدون أن الخمر هي دم المسيح، فمن شربها فقد سرى في عروقه دم المسيح، وأن القليل منها يفرح القلب، كل هذه الخرافات منصوص عليها في أناجيلهم المحرفة.

قال الدكتور/ عبد الله ناصح علوان:

ففي تلك المجتمعات البعيدة عن منهج الله تجد الشباب الشارد، السادر، والمخمور في الحشيش والخمر والمخدرات.

الجيل المتحلل المائع المريض جسميًا وعقليًا ونفسيًا.

عصابات القتل والخطف والاغتصاب الجنسي.

عصابات تهريب المخدرات: الأفيون والحشيش وغيرهما[1].

يقول الأستاذ مصطفى غزال:

لقد جربت الولايات المتحدة منع الخمر وتحريمه ففشلت فشلاً ذريعًا؛ لأن السر كامنٌ في قلوب المجرمين وقلوب الشاربين والعاصرين والبائعين، ولذا فلن يكون الحل إلا من طريق الإسلام.

يقول الدكتور/ محمد علي بار في كتابه «الخمر بين الطب والفقه»:

ومن عرف عمق المشكلة وخطورتها في عالم اليوم كافرهم ومسلمهم عرف أن لا حل لها إلا بالعودة إلى طريق الله، وإلا فهي متاهات وفيافي وقفار ومفازات قل أن ينجو منها أحد.. إلى أن يقول: وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وليس هناك أشد ضنكًا وتعاسة من حياة الناس في أوربا وأمريكا اليوم، وقد أحس بتفاهة هذه الحياة هناك أدباؤهم وفلاسفتهم، وامتلأت كتبهم وأشعارهم بعبارات القرف والتفاهة، وأن يتقيأ المرء منهم نفسه، ثم ينتهي به الأمر إلى الانتحار كما فعل "البيركامي" الفيلسوف الوجودي الفرنسي، وكما فعل الأديب العالمي الشهير "أرنست همنجواي"، وكما فعلت "مارلين منرو" الممثلة المشهورة، ولن أحصي، وإنما هي أمثلة على ما تعانيه أوربا وأمريكا وحضارتهما...

ويقول في مكان آخر: إن الإدمان مشكلةٌ عميقة الجذور، ولا يمكن حلها بنظرية سطحية، أو بمعالجة أسبابها الظاهرة فقط، وقد أصبحت المشكلة خطيرة جدًّا في أوربا وأمريكا حيث الخمور في تناول الجميع.

---

(١) كتاب «خطر التبرج والاختلاط» للأستاذ عبد الباقي رمضون، نقلاً عن «الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي» لعبد الله ناصح علوان: (ص٢٥)، ط. دار السلام.

يقول الدكتور (أدبري لويس) أستاذ الأمراض النفسية في جامعة لندن: (إن الكحل هو السم الوحيد المرخص بتناوله على نطاق واسع في العالم كله).

قامت الولايات المتحدة بتجربة رائدة في القرن العشرين، فقد أقر الكونجرس الأمريكي بالإجماع تقريبًا منع الخمر بقانون صدر في ١٦ يناير ١٩١٩م، وينفذ من بداية يناير ١٩٢٠م.

وهو القانون المشهور باسم (التعديل الثامن عشر)، ويحرم القانون صناعة الخمر سرًا وجهرًا، وبيعها، وتصديرها، واستيرادها، ونقلها، وحيازتها، وكل من يخالف ذلك يعاقب بالسجن أو الغرامة أو بهما معًا.

وبُذلت جهود جبارة في التوعية، حتى لقد سودت تسعة ملايين صفحة تبين أضرار الخمر الطبية والاجتماعية والأخلاقية، وبلغت تكاليف الحملة الإعلامية في ذلك العام فقط خمسة وستون مليون دولار.

ولكن لم يكد يمضي على إغلاق الحانات ومصانع الخمر أيام قلائل إلا وابتدأت تنتشر آلاف الحانات السرية.

وفي غضون أشهر قليلة زاد شاربو الخمر عما كانوا عليه قبل المنع، فحاول القانون أن يفرض المنع بالقوة، وقدم إلى المحاكمة ملايين الأشخاص، وكان نتيجة ذلك أن سجن نصف مليون شخص لإدانتهم بشرب الخمر، أو الاتجار فيها، أو حيازتها، وذلك ما بين الفترة الواقعة من يناير ١٩٢٠م إلى أكتوبر ١٩٣٣م، أي: الفترة التي منعت فيها الخمر في الولايات المتحدة.

ومما يبدو واضحًا أن الحكومات المتعاقبة في الولايات المتحدة في فترة المنع (١٩٢٠ ـ ١٩٣٣م) كانت جادة في تطبيق القانون، فقد بذلت في ذلك جهودًا جبارة، ولكن كل تلك الجهود المضنية باءت بالفشل، وصار من المحتم على الحكومة الأمريكية والكونجرس الأمريكي أن يعيد النظر في قرار

المنع ذلك، إذ وجدت الحكومة الأمريكية أن ملايين الأمريكيين قد أقبلوا على شرب الخمور السرية الرديئة، وزاد الإقبال عليها، وخاصة بين الشباب، وظهرت فئة لم تكن تعرف من قبل، وهم باعة الخمر المتجولون الذين يبيعون الخمر إلى طلبة المدارس والمكاتب والمتنزهات والفنادق ويدعون (بوت ليكجرس)، ولم يكن يثنيهم عن جهودهم تلك خوف القانون، ولا بطش ولا شدة العقوبة، فقد كانت المغريات كثيرة والربح سهل وفير.

وانتشر استعمال الخمور الرديئة، وكل الخمور رديئة.

وقد نشرت آنذاك إحصاءات مرعبة عن الوفيات الناتجة عن استعمال تلك الخمور الرديئة أو قل تلك السموم الناقعة.

ففي عام ١٩٢٧م هلك من استعمال تلك السموم الناقعة ٧٥٠٠ شخص، كما أصيب بأمراض وبيلة من جراء شربها ١١٠٠٠ في نفس العام.

وازدادت نسبة الجرائم كلها من هتك للأعراض، وسرقة، وقتل، وتضاعف عدد المجرمين ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل المنع.

وكان نتيجة هذه الإحصاءات والمعلومات المرعبة أن اجتمع الكونجرس والحكومة، وأعادوا النظر في منع الخمور، وقرر الكونجرس في أبريل ١٩٣٣م إصدار قانون إباحة البيرة والسيدر فقط، أي: الخمور التي تحتوي على ثلاثة بالمائة من الكحول فقط، ثم لم تمض بضعة أشهر حتى رفع قرار الحظر بالكلية في ديسمبر ١٩٣٣م.

ومن هذه التجربة الرائدة في القرن العشرين يتجلى لنا عظمة الإسلام الذي استطاع منع الخمور من أربعة عشر قرنًا، وذلك لأن الإسلام سلك الطريق السليم في تحريمها، فابتدأ بالتنفير منها، ثم منع شربها أوقات

الصلاة، ثم جاء التحريم الكامل، أما هؤلاء فقد أرادوا منعها بين يوم وليلة[1].

وقد حَرَّم الإسلام الخمر بعد أن ربى الإيمان في قلوب الصحابة الكرام، ولو نزل أول ما نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، وإنما حرمت الخمر بعد أن تشوف الصحابة الكرام للتحريم، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول للرسول ﷺ: قل لنا في الخمر قولاً شافيًا، فلما نزل قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١] قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: انتهينا انتهينا، وأراقوا الخمور حتى صارت كالأنهار في سكك المدينة، فانظر إلى عظمة الإسلام، وعظيم فضل الله على المسلمين قال تعالى بعد تمام التشريع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].



(١) «أفول شمس الحضارة الغربية ـ من نافذة الخمر»: (ص٣٢ ـ ٤٠) باختصار.

٤ـ المظهر الرابع من مظاهر شقاء الغرب الكافر (السُّعار الجنسي والشذوذ والأمراض الجنسية الفتاكة).

قال الدكتور/ عبد الله ناصح علوان:

إن المتتبع لما يكتبه رواد الإباحية من الوجوديين اللاأخلاقيين في عالم الغرب، يجد العجب العجاب، فيما ينفثه فكرهم لقتل كرامة الإنسان، وفيما تزفر به أقلامهم المأجورة في تحطيم كيان المجتمع، . . وهؤلاء كثيرون كأمثال "كامي"، و"آثرميللر"، و"سلاكرو"، و"سارتر"، و"نيتشه" و"كير كجارد" فهؤلاء وكثير غيرهم حملوا في العالم لواء الفكر الإباحي، ودعوا أبناء المجتمعات الإنسانية إلى أن يتحرروا من سلطان الدين، ووازع الأخلاق، وفضائل العادات . . وأن يطلقوا لأنفسهم هواها في الأخذ بمتع الحياة، والانخراط في متاهات اللذة والفجور، وعلى الأغلب إن لم يكونوا يهودًا فإنهم رضعوا مبادىء الماسونية، وتشبعوا بالأفكار اليهودية في هدم المجتمعات، ثم انطلقوا بعد الفِطام والتخرج من محافلهم إلى عالم الفكر والأدب والمسرح، ليفسدوا الأمم بفلسفتهم، ويحطموا المجتمعات ببغيهم وفجورهم، ويسوقوا الشباب والشابات إلى حظائر الإلحاد، والميوعة، والإباحية[١].

قال الدكتور/ عبد الله عزام:

أما الجنس وأمراضه وسعاره فحدث عنه ولا حرج.

ففي نيويورك (١٢٠٨٢٩) عملية إجهاض سنة ١٩٧٤م.

بنسبة (١١٣٨ : ١٠٠٠) إجهاض : ولادة.

---

(١) «الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي» لعبد الله ناصح علوان: (ص٢٧).

و٦٧٪ من المجهضات غير متزوجات.

وفي نيويورك (١,٢٠٠,٠٠٠) شاذ جنسيًّا.

وأجريت في جامعة لوس أنجلس / كليفورنيا إحصائية للشاذين جنسيًّا من الجنسين في الجامعة فكانت النسبة (٨٤٪).

وقد كان عدد المستشفيات للأمراض الجنسية في الولايات المتحدة (٦٥٢) وهذا يفوق جميع المستشفيات لجميع الأمراض عدا السل.

ونقل المودودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن دائرة المعارف البريطانية أنه في الأربعينات كان ٩٠٪ من الشباب الأمريكي مصابًا بالسيلان، و٤٠٪ من الشباب الأمريكي مصاب بالبرود الجنسي، وقد كنت أحتفظ في جيبي بصورة لأحد الشباب الأمريكي عمره في الحادية والعشرين تزوج جدته وعمرها (٧٧) سنة، وعقدت لهما عقدهما الكنيسة في قرية لوس أنجلس، وقد صرح كنيدي سنة ١٩٦٢م أن ٨٥,٧٪ من الشباب الذين يتقدمون للجندية غير صالحين لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية، إن مستقبل أمريكا في خطر؛ لأن شبابها مائع منحلٌ غارق في الشهوات، الأمر الذي سيجعلهم عاجزين عن القيام بالمهام الملقاة على عواتقهم[١].

وتقول الإحصائيات الحديثة أن عدد الشاذين جنسيًّا في الولايات المتحدة يبلغون (١٧) مليونًا، وهناك معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال على الرجال، والنساء على النساء، في حفلات خاصة[٢].

---

(١) «الإسلام ومستقبل البشرية» لعبد الله عزام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ص٣٢ـ٣٣).

(٢) «أفول شمس الحضارة الغربية ـ من نافذة الشذوذ الجنسي»: (ص٢٣).

ومن الأمراض التناسلية التي ظهرت حديثًا ولم تكن معروفة قديمًا مرض الإيدز، وقد كان هذا المرض غامضًا لا يعرف سبب نشأته، ولكن تبين أخيرًا أنه مرض تناسلي ـ كما يقولون ـ ناشيء عن الشذوذ الجنسي.

تقول مجلة «المجتمع»: (المجتمع الغربي الذي تخلى عن القيم الأخلاقية والعقائد وسائر في طريق الميوعة والانحلال الخلقي لفترة طويلة من الزمن بدأ الآن يجني عقاب ما جنته يداه بظهور المزيد من الأمراض الجنسية القاتلة، فبالأمس القريب "الهيبرس أو الإيدس"، واليوم وباء "السيد"). «المجتمع»: (٦٢٨/ ٢٩)[١].

وقد اختصرنا الكلام على هذا الباب حرصًا على سلامة قلوب القراء، وحسبك من شر سماعه، والمقصود بيان شقاء الكفار والإباحيين بكفرهم وإباحيتهم، فهم في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

والمقصود أن القلوب لا تسعد بالشهوات وإنما تسعد بالله عز وجل رب الأرض والسماوات بحبه وذكره وعبادته، فالحمد الله على نعمة الإسلام والإيمان والله المستعان.

* * *

(١) السابق: (ص٤٣).

٥ ـ ومن مظاهر شقاء الغرب الكافر كثرة الجرائم.

ولاشك في أن كثرة الجرائم وخطورتها مما يذهب الأمن من البلاد وقلوب العباد، وقد خَصَّ الله عز وجل الأمن بأهل الإيمان فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

في تحقيق صحفي قامت به مجلة «المجتمع» في السبعينات على التقويم الميلادي جاء فيه:

في الولايات المتحدة الأمريكية تجاوزت الجريمة أكثر من عشرة أضعاف في السنوات الأخيرة، وأصبح معدل الجريمة: جريمة قتل كل دقيقتين، جريم اغتصاب كل عشرين دقيقة، وجرائم أخرى دون اغتصاب، أي: بالتفاهم بين المجرمين على حساب الأسرة، والمجموع البشري، وتتم دون أن يمكن حصرها، والعنف المنظم جزء لا يتجزأ من العلاقات الاجتماعية في هذا المجتمع.

ومن الملاحظ أن جرائم القتل الحادة تكثر بين الشباب من ١٥ ـ ٢٥ سنة، أي: هؤلاء الذين تتضخم لديهم الطاقات الباحثة عن الإشباع دون أن يجدوا متنفسًا حقيقيًا سليمًا للتفريغ، وفي ألمانيا تضاعفت جرائم القتل الناري عشرة أضعاف، وفي سنة ١٩٦٩م سجلت إحصائيات الجرائم أكثر من ألفي جريمة قتل، وفي عام ١٩٧٠م وصلت إلى ٢٥٠٠ جريمة، وفي عام ١٩٧١م وصلت إلى ٣٠٠٠، والزيادة مطردة.

ولا مجال للاستطراد فالنتيجة سيئةٌ للغاية تنبىء بمستقبل مظلم للإنسان، الإنسان المجرد من الروح والضمير والعقل والإحساس؛ لأنه ـ وهذه هي الحقيقة ـ الأبقى والأخلد بدون مناخ إسلامي تهيمن روحه على

الحياة لا يوجد بديل إلا عالم الجريم . . .). «المجتمع» : (١١٦/ ١٥)[(١)] .

مجلة «المجتمع» تروي لنا قصة مريعة تكشف حقائق مثيرة عن وحشية حضارة القرن العشرين فتقول: (سمع أحد المارة أنينًا صادِرًا من بين الأدغال في غابة شيلي في شيكاغو، فلما اقترب من مصدر الصوت وجد فتاة تئن بجراحها نتيجة لضرب شديد، وكانت ملحفة ببطانية، ومربوطة بحبل، وجاء البوليس، وأحضرت الفتاة إلى المستشفى وهي فاقدة الوعي، وبحالة يرثى لها.

وحاول الأطباء جهدهم لإعادة وعيها دون جدوى، وماتت يوم الأحد ١٨/ ٨/ ١٩٧٧م وبكى عليها كل من شاهدها.

ولما كانت هذه الفتاة مجهولة الهوية، فإن إعلان اكتشافها وموتها بغية حضور ذويها، قد أظهر حقائق عجيبة.

لقد تلقت المستشفى ٥٠٠ مكالمة تليفونية من آباء فقدوا بناتهم محاولين التأكد فيما إذا كانت هذه الفتاة هي ابنتهم أم لا؟

يقول البوليس الذي حقق في الحادث بأنهم تلقوا ألف مكالمة تقريبًا من آباء فقدوا بناتهم، وأن مائتين حضروا المستشفى لرؤيتها.

إن هذا الحادث كشف جزئيًّا عدد العلائلات التي افتقدت بناتها بسبب الخطف إو الإغراء بتلك العائلة.

فما عدد العائلات التي تفقد أبناءها بصورة عامة، ذكورًا وإناثًا، صغارًا أو كبارًا؟ ما عددها بالضبط؟

ليس هناك رقم مضبوط ـ والعلم عند الله ـ إلا أن عدد المكالمات

---

(١) «أفول شمس الحضارة الغربية ـ من نافذة الجرائم»: (ص١٠ ـ ١١) باختصار.

الهاتفية بسبب هذا الحادث تعطي فكرة بسيطة عن شقاء هذه الأمة، وابتلاء الله لها، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[1] [الأنعام: ٤٤].

قال الدكتور/ عمر الأشقر:

من أعظم النعم نعمة الأمن، وقد امتنَّ الله على قريش بهذه النعمة ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٤]، ومتى فقد الناس نعمة الأمن فإن الحياة تتحول إلى شقاء ـ وأي شقاء ـ إذا فقد الناس نعمة الأمن فإن الحياة يتغير طعمها، ولا ينعم الإنسان بعد ذلك بماله ولا ولده ولا تسره مباهج الدنيا، وتفتقد نعمة الأمن إذا انتشرت الجريمة في المجتمع، وقد تتبعت هذا الموضوع في بعض الصحف السيارة في فترة وجيزة فهالني انتشار الجريمة خاصة في المجتمعات التي نظنها متحضرة.

ثم ذكر ـ حفظه الله ـ عدة أمثلة لا نطيل بذكرها ثم قال:

وهذا الذي كتب عبرة وعظة وكل الذي يأسى له المسلم أن بعض أبناء المسلمين لا يزال يظن أننا لن نتحضر إلا إذا لعقنا قاذورات الغرب، وشربنا المتعفن من فكره، إن في ديار المسلمين بقية من الإسلام جعلت هذه الديار أكثر بلاد العالم أمنًا، وقد بدأت الجريمة تطل برأسها هنا وهناك كلما ابتعدنا عن الإسلام، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، ها هم اليوم يصرخون من أعماق قلوبهم فزعين وجلين: أعيدوا عقوبة الإعدام،

---

(١) «المجتمع»: (٣٧٨/ ٤١) نقلاً عن «أفول شمس الحضارة الغربية»: (٣/ ٢٣ ـ ٢٥) باختصار.

أعيدوا عقوبة الإعدام، وفينا اليوم من يقول: عقوبة الإعدام وقطع يد السارق وحشية همجية سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فإذا علم من أراد أن يتجرأ على دماء الناس أن روحه سوف تزهق، وأن حياة القاتل ليست أعز على المجتمع من حياة المقتول، فسوف يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على هذه الجريمة التي هي بعد الشرك بالله عز وجل، وبذلك تحقن دماء كثيرة فيكون في القصاص حياة.

* * *

(١) «جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة»: (ص٩٣ ـ ٩٤).

(٧) شواهد في قلب كل مؤمن تشير إلى أن السعادة في الطاعة والعبادة.

وهذه الشواهد تشهد بها النفوس المؤمنة، والقلوب السليمة، والفطر المستقيمة، فهذا الباب باب شريف، وقصر منيف، لا يدخله إلا النفوس الأبية التي لا ترضى بالدون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيع الخاسر المغبون، فإن كنت أهلاً لذلك فادخل، وإلا فردَّ الباب وارجع بسلام.

فمن كان يملك قلبًا سليمًا يجد حلاوة الطاعة والعبادة، وشؤم الإعراض والمعاصي، وكلنا جَرَّبَ الطاعة والمعصية، ليس مِنَّا أحد كل أعماله طاعة، وكذا ليس منا من كل أعماله معاصٍ، فكم أطعت الله فوجدت حلاوة في قلبك، وانشراحًا في صدرك، وجميعة على الله عز وجل، وأُنْسًا به وفرحًا بقربه، كم وفقت إلى قيام ليلة، أو صيام يوم، أو إصلاح بين الناس، فوجدت أثر ذلك بقلبك. لا شك في أنك لا تجد من حلاوة الإيمان ما وجده إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وشيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن كلٌّ بحسبه، وهذا شاهد قوي على هذه القضية التي نحن بصددها، وهي أن طريق السعادة هو طريق الطاعة والعبادة.

وكما يجد العباد السعادة مع الطاعة والاستجابة، كذا يجدون غِبَّ الإعراض، وضنك المعصية، فكم عصيت الله عز وجل فوجدت ضيقًا في صدرك، وشقاءً في قلبك، ووحشة بينك وبين الله عز وجل، ووحشة بينك وبين عباد الله الصالحين، كم أطلقت بصرك فيما حرم الله أو تكلمت بما لا يعنيك فوجدت غِبَّ ذلك، فكيف بالذين يقارفون كبائر الذنوب والفواحش، وينتقلون من معصية إلى معصية دون استغفار أو توبة، لاشك في أنهم في ضنك وشقاء، ونكتة المسألة أن العبد إذا أطاع الله عز وجل قَرَّبه الله عز وجل وأدناه، فيأنس بالله عز وجل، ويسعد به، ويستغني به، وإذا

عصى الله عز وجل طرده عن حضرته، وأبعده بقدر جريمته، فيحس بالضنك، والشقاء، والوحشة.

والقلب أسعد ما يكون في الدنيا والآخرة في قربه من الله عز وجل، ولذا كان أهل الفردوس هم أسعد الناس؛ لأن الفردوس سقفه عرش الرحمن، وإنما ينال القرب من الله عز وجل في الآخرة ويسعد بجواره في الجنة من اجتهد في التقرب إليه في الدنيا كما في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ...»[1]، فسعادة العباد في الدنيا والآخرة في قربهم من الله عز وجل، ولذا كان نبينا ﷺ أسعد الناس بالله عز وجل في الدنيا والآخرة، وهو صاحب الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وهي له ﷺ على القطع، ومع أنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يصلي حتى ترم ساقاه، وتفطر قدماه، ويقال له: أتفعل ذلك، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا، وكان يواصل وينهى عن الوصال، ويقول: «إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني»، مع أنه بشر من البشر كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، ومهما أحب العبد أحدًا سُرَّ بخدمته وطاعته، **كما قال بعضهم:**

وكن لربك ذَا حب لتخدمه ... إنَّ المحبين للأحباب خُدَّام

وقال بعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعم حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي في القِيَاسِ بَدِيْعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

---

(١) رواه البخاري: (١١/ ٣٤٨-٣٤٩) الرقاق.

فمهما ازداد حُبُّ العبد لله عز وجل تُحبب إليه الطاعات، وتخف عليه، وتستعصي عليه المعاصي وتثقل على قلبه، كما قال بعضهم: إني لا أحسن أن أعصي الله. وقال بعضهم: أحبه إليَّ أحبه إليه.

وهكذا يترقى المؤمن في درجات القرب والولاية، فكلما أكثر من الطاعة والعبادة سلم قلبه، وازداد تعلقه وافتقاره إلى الله عز وجل، فيزداد طاعة وسعادة في الدنيا، حتى يصل إلى ما صرح به بعض الصالحين، وقد تقدم كلامهم، إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة كما نحن فيه، والله إنهم لفي عيش طيب، فيحيا هذا العبد المؤمن حياة مطمئنة بالطاعة والعبادة بعيدة عن المعاصي والغفلة، حتى يوفق إلى حسن الخاتمة فتتم نعمة الله عز وجل عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، ويسعد في الآخرة بجوار الكبير المتعال.

وهذا الباب ـ كما أسلفنا ـ باب شريف يستشعره ويتفهمه أصحاب القلوب السليمة والفطر المستقيمة، أما مطموس القلب أعمى البصيرة فلا يستشعر معناه، ولا يتفهم مغزاه، العبد قد يكون له حالٌ مع الله عز وجل، أي: درجة إيمانية فهو باستمرار منشرح الصدر، ممتلىء القلب بحلاوة الإيمان والأنس بالرحمن، فتصدر منه المعصية، فيهبط القلب من عليائه ويفقد ما كان يجده من حلاوة الإيمان، والسعادة بالرحمن، والمعصية بعدها هبوط وحرمان كما هبط آدم وحواء من دار السعداء إلى الدنيا دار الشقاء، وحرما القرب من الله عز وجل والسعادة بمجاورته في الجنة، ولكن الله عز وجل مَنَّ عليه بسبب الرجوع إليه والدخول في عبادته وطاعته ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، ووعده الله عز وجل بالعودة إلى الجنة هو وصالحي ذريته:

كَمْ مَّنْزل لِلْمَرْءِ يَأْلَفُهُ الفتى وَحَنِيْنُـهُ أبـدًا لأَوَّلِ مَنْـزِلِ

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها مَنَازِلُنَا الأُوْلَى وَفِيْهَا الُمخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تُرَى نَعُـودُ إِلى أَوْطَـانِنَـا وَنُسَلِّـمُ

وللمسلم في أبيه آدم أسوة إذا حرم جنة الإيمان والعبادة والسعادة بمعصيته أو غفلته، وهبط من رتبة الإيمان التي يجد فيها سعادة القرب من الله عز وجل عليه بمعاودة الطاعة والتوبة والإنابة حتى يترقى إلى حالته الأولى التي يجد فيها سعادة الإيمان والأنس بالرحمن.

فمحصل هذا الباب أن نفوسنا تشهد مع الشاهدين، في أن طريق الطاعة والعبادة هو طريق السعادة، وهو أيضًا طريق الحسنى وزيادة، نسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

كان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب نعيمها.

فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته.

وقال آخر: أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: والله إنه لتمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيب.

وأنت ترى محبة من في محبته عذاب القلب والروح، كيف توجب لصاحبها لذة يتمنى أن لا يفارقه حبه كما قال شاعر الحماسة:

تشكَّى الْمُحِبُّون الصَّبَابَـةَ ليتنـي تَحملتُ مَا يَلقون مِن بَيْنِهِم وَحْدِي

فكَـانَـتْ لِقلبـي لـذَّةُ الحـب كلهـا   فلـم يلقهـا قبلي محـبٌّ ولا بعـدي

قالت رابعة: شغلوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله، ولو تركوها لجالت في الملكوت، ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد.

وقال سلم الخواص: تركتموه وأقبل بعضكم على بعض، ولو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب.

وقالت امرأة من العابدات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذخر لها في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفُ لها في الدنيا عيش، ولم تقر لها في الدنيا عين.

وقال بعض المحبين: إن حبه عز وجل شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لذةٌ تداني محبته، ولا يؤملون في الآخرة من كرامة الثواب أكثر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم.

وقال بعض السلف: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا حظر له مما وعد به من لا أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير اللهِ المعرض عن ذكره من العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خلق له لكفى بذلك عقوبة.

وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره، غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكوا إليك قسوة قلبي، قال: أذبه

بالذكر، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، ولا يذهب قساوته إلا حبٌّ مقلق أو خوف مزعج[(١)].

فانظر كيف تتم سعادة العباد في الدنيا والآخرة بتكميل مراتب الحب لله عز وجل، فمن اكتمل حبه اكتملت سعادته، ومن نقص حبه نقصت سعادته، ومن خلا قلبه من محبة الله عز وجل لزمه الشقاء، والبؤس، والبخس في الدنيا والآخرة.

اللهم إنا نسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلينا، ومعصيتك أبغض الأشياء عندنا، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

قال عائض القرني:

ما أشقى النفوس التي لا تعرف الإسلام ولم تهتد إليه، إن الإسلام يحتاج إلى دعاية من أصحابه وحملته وإعلان عالمي هائل؛ لأنه نبأ عظيم والدعاية له يجب أن تكون راقيةً مهذبةً جذابة؛ لأن سعادة البشرية لا تكون إلا في هذا الدين الحق الخالد ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

سكن داعية مسلم شهير مدينة ميونخ الألمانية وعند مدخل المدينة توجد لائحة كبرى مكتوب عليها بالألمانية: (أنت لا تعرف كفرات يوكوهاما) فنصب هذا الداعية لوحة كبرى بجانب هذه اللوحة كتب عليها: (أنت لا تعرف الإسلام إذا أردت معرفته فاتصل بنا على هاتف كذا وكذا).

---

(١) «روضة المحبين» لابن القيم: (ص١٦٦ ـ ١٦٧)، مطبوعات دار الصفا.

وانهالت عليه الاتصالات من الألمان من كل حدبٍ وصوبٍ حتى أسلم على يده في سنة واحدة قرابة مائة ألف ألماني ما بين رجل وامرأة، وأقام مسجدًا ومركزًا إسلاميًا ودارًا للتعليم.

إن البشرية حائرة بحاجة ماسة إلى الإسلام ليرد إليها أمنها وسكينتها وطمأنينتها: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧].

يقول أحد العباد الكبار: ما ظننت أن في العالم أحدًا يعبد غير الله.

وقد أخبرني أحد العلماء أن سودانيًّا مسلمًا قدم من البادية إلى العاصمة الخرطوم في أثناء الاستعمار الإنجليزي، فرأى رجل مرور بريطانيًّا في وسط المدينة، فسأل هذا المسلم: من هذا؟ قالوا: كافر. قال: كافر بماذا؟ قالوا: بالله. قال: وهل أحد يكفر بالله؟ فأمسك على بطنه ثم تقيأ مما سمع ورأى، ثم عاد إلى البادية ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠].

يقول الأصمعي: سمع أعرابي قارئًا يقرأ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، قال الأعرابي: سبحان الله، من أحوج العظيم حتى يقسم[1].

• • •

(١) «لا تحزن»: (ص١١٨) باختصار.

(٨) شهادة المنصفين من الغربيين الذين أحسوا بالسعادة في دين الإسلام والعبادة.

قال (ركس انجرام)[١]:

(إني أعتقد أن الإسلامي هو الدين الذي يدخل السلام والسكينة إلى النفس، ويلهم الإنسان العزاء وراحة البال والسلوى في هذه الحياة، وقد تسرب روح الإسلام إلى نفسي فشعرت بنعمة الإيمان بالقضاء الإلٰهي، وعدم المبالاة بالمؤثرات المادية من لذة وألم، لقد درست الدين الإسلامي مدة سنين، ولم أتخذه دينًا إلا بعد بحث قلبي عميق، وتحليل نفسي طويل، لم أغير ديني إلا لكي أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنوني، ولأنعم بالسكينة في ظلال الهدوء والتأمل، بعيدًا عن متاعب الهموم والمحن التي يسببها التكالب على الكسب، والتهالك على المال، والذي أصبح اليوم معبود البشر وإلههم، ولأخلص نفسي من براثن الإغراء، وخدع الحياة الباطلة، والشراب والمخدرات وجنون فرقة الجاز، أسلمت لكي أنقذ ذهني وحياتي من الهدم والتدمير).

وقال كذلك: أنا اليوم ابن الإسلام، وإني سعيد أكثر مما كنت في أي يوم من أيام حياتي، وفي مدنيتي الغربية، ومع ثيابي الغربية، سعيد كمؤمن بدين الإسلام الخالد، الذي هو أكمل دين سماوي ارتضاه الله للبشرية[٢].

---

(١) (ركس انجرام): وُلد في اسكتلندا في أواخر القرن الماضي، وشارك في الحرب العالمية الأولى، ثم رحل إلى العديد من بلاد الشرق، ودرس لغاتها وأديانها، وانتهى به المطاف مصورًا سينمائيًّا في هوليود، اعتنق الإسلام بعد أن وجد فيه ضالته المنشودة.

(٢) «قالوا عن الإسلام» عماد الدين خليل: (ص١٥٤ ـ ١٥٥)، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

وقال **(ديبورا بوتوا)**: إن الناس في أوروبا وأمريكا يقبلون على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة؛ لأنهم متعطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي، بل إن عددًا من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين بدأوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة أصبحوا هم أنفسهم مسلمين، وما ذاك إلا لأن الحقَّ حجته دامغة[١].

وتقول **(جميلة قزار)**[٢]: شعرت أنني كمسلمة يمكنني أن أحيا حياة كاملة جديرة بالحياة، وأن الإسلام يجعل المرء يشبع حاجاته الروحية والمادية على حدٍّ سواء، في توازن يضمن تطور عقلية ثقافية مبدعة، ويحقق اجتهادًا دائبًا لتحسين الوضع المادي للإنسان على أساس من العلاج، للإنسان وحده بل لجميع الخلائق. ـ وقالت ـ: إن الإسلام قد أحدث تغييرًا في حياتي كلها، إذ حررني من اليأس العنيد والتذمر والاستسلام، وهي نتائج نجمت عن النظرة المادية التي تهيمن على كثير من الناس في المجتمعات الغربية[٣].

قالت **(قرة العين)**[٤]: (. . كنت مهتمة بدراسة الأديان فلمست السماحة والمنطق في الدين الإسلامي، ووجدت أن اهتمامي بالإسلامي تجاوز مرحلة

---

(١) السابق: (ص١٦٤).

(٢) (جميلة قزار): ولدت في النمسا عام ١٩٤٩م لأبوين ملحدين وحاولت أن تكون مسيحية، إلا أن النصرانية لم تستطع إقناعها، فيممت شطر الإسلام، وسمعت وقرأت عنه، وما لبثت أن اعتنقته وهي في العشرين من عمرها.

(٣) السابق: (ص٢١٠).

(٤) (قرة العين): سيدة أمريكية تنحدر من أسرة مسيحية متدينة، وفي نيويورك مدينة ناطحات السحاب والمادية والجريمة كان الرد: هو الإسلام. وقد تسمت باسمها الجديد بعد إسلامها، تخرجت من جامعة بنسلفانيا، وكانت لديها رغبة جارفة للقراءة والبحث، وبخاصة في مجال الأديان، حيث وجدت الجواب على تساؤلاتها كافة في الإسلام.

مجرد الاطلاع أو القراءة أو الاستماع إلى مرحلة الارتباط بهذا الدين، ووجدت نفسي سعيدة لأنني أخيرًا وجدت الدين الذي يمكنني من التعامل مع نفسي وربي أولاً على أساس سليم مما ينعكس في تعامل صحي وأخلاقي مع باقي أفراد المجتمع).

وقالت: (كنت أشعر أن شيئًا ما فيما أقرأه يقنعني عقليًا، ويملأ فراغًا روحيًا من قلبي، وكذلك كنت أشعر والحمد لله بأنني أقرأ عن دين جديد، وليس بجديد على نفسي، كانت القراءة تجيب بالمنطق والحجة على تساؤلات كثيرة كانت تدور داخلي من قبل، ولم أكن أجد لها إجابة، باختصار وجدت في الإسلام الرضا الذي كنت أنشده من قبل، عندما كنت مسيحية أبحث عن الحقيقة فلا أهتدي إليها)[1].

قال الدكتور أرثركين (علي عمر كين)[2]:

كنت أنطوي على نفسي، وأقرأ في شغف وفهم كل ما تصل إليه يدي من كتب الأديان المختلفة، وأتعمق في هذه القراءات التي استمرت عشر سنوات كاملة، وأخيرًا وصلت إلى نتيجة هامة، وبلغت الحقيقة التي ظللت أبحث عنها طويلاً، وهي أنني سأعتنق الإسلام وأكون مسلمًا.

---

(١) السابق: (ص٢١١).

(٢) الدكتور آرثركين (علي عمر كين): فيلسوف أمريكي، اشتغل بالصحافة ثم اتجه إلى الكتابات الاجتماعية والفلسفية، ثم تفرغ للتأليف، فألف عدة كتب في علم النفس العلاجي، وشَنَّ هجمات مركزة ضد التدخين والخمور، قرأ كثيرًا، وانتهى إلى أن الإسلام هو الطريق الوحيد، فأعلن إسلامه ١٩٦١م بمدينة نيويورك، وزار القاهرة، وأعلن شهادته مرة أخرى أمام شيخ الأزهر (محمد شلتوت) رَحِمَهُ اللَّهُ، وحينذاك امتلأت نفسه بالطمأنينة والراحة، وأصبح الإسلام جزءًا لا يتجزأ من حياته.

لقد انتهيت في يقين إلى أن الإسلام هو دين العقل والمنطق؛ وهو دين الحياة الدنيا والآخرة وهو أيضًا دين المادة والروح معًا)[١].

تقول روز ماري (مريم هاو)[٢]:

لقد وجدت في الدين الإسلام الإجابات الشافية [عن معضلة الروح والمادة] فعلمت أن للجسد حقًّا علينا كالروح تمامًا، وأن الحاجات الجسدية هي في نظر الإسلام غرائز طبيعية تستحق الإشباع وليست أمورًا شريرة مستقذرة، بل لابد من إشباعها من أجل أن يعيش الإنسان قويًّا منتجًا فعالاً، إلا أن الإسلام قد وضع قواعد أساسية لإشباع هذه الحاجات على أسس سليمة، تحقق الرضا للنفس وتلتزم بأوامر الله، فالزواج في الإسلام مثلاً هو الطريقة الوحيدة المشروعة لإشباع الغريزة الجنسية، والصلاة والصوم والتعبد والإيمان بالله هي الأخرى وسائل لإشباع الجانب الروحي من الإنسان، وبذلك يتحقق التوازن الذي لابد منه لحياة إنسانية كريمة[٣].

ونختم هذه الشهادات للغربيين الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام والطاعات للملك العلام بشهادة الدكتور بنو (علي سلمان بنوا)، وهي تنم عن سعادة عظيمة بالإسلام، وفرح بالهداية لدين الملك العلام على قصرها.

---

(١) السابق: (ص٢٣٠).

(٢) روز ماري (مريم هاو): صحفية انكليزية نشأت في عائلة نصرانية متدينة، لكنها مع بلوغها مرحلة الوعي بدأت تفقد قناعتها الدينية السابقة، وتتطلع إلى دين يمنحها الجواب المقبول، وفي عام ١٩٧٧م أعلنت إسلامها، وهي تعمل الآن في صحيفة (الأراب تايمز) اليومية الكويتية التي تصدر بالانكليزية.

(٣) السابق: (ص٢٥٠).

يقول الدكتور/ علي سلمان بنوا[1]:

وإنني الآن سعيد جدًّا بديني الجديد، وإنني أعلن مرة أخرى: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله)[2].

وبعد، فهذه جملة من أقوال بعض الغربيين، وأكثرهم علماء ومفكرون وأطباء وصحفيون كانوا صادقين في طلب الحق، وهداهم الله عز وجل للحق المبين وهو الإسلام، فوجدوا فيه ضالتهم المنشودة، وسعادتهم المفقودة، فأخبروا عن ذلك بتعبيرات تختلف ألفاظها وتتفق معانيها، وهي أن السعادة الحقيقية وانسجام الروح والبدن لا يكون إلا في اتباع شريعة الإسلام، والاستجابة للواحد العَلاَّم، وقد لا يستشعر من ولد لأبوين مسلمين فورث الإسلام هذه المعاني التي يحس بها هؤلاء المسلمون، لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان بعد إحساسهم بالضياع والشقاء في شرائع الكفر والإلحاد، فالإسلام هو دين الفطرة، أي: أن الفطرة السليمة تنسجم مع الإسلام، وتسعد به، وتستريح إليه، وتجد فيه ضالتها المنشودة، فنسأل الله عز وجل أن لا يحرمنا من هذه النعمة العظيمة نعمة الإسلام حتى نلقاه به مسلمين مؤمنين، وكما أسعدنا في الدنيا بطاعته نسأله عز وجل أن يسعدنا في الآخرة بجنته، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

• • •

(١) الدكتور علي سلمان بنوا: طبيب فرنسي من أسرة كاثولوكية، قرأ كثيرًا عن الإسلام بعد اهتزاز قناعته بمعطيات المسيحية، ثم أعلن إسلامه في شباط من عام ١٩٥٣م.

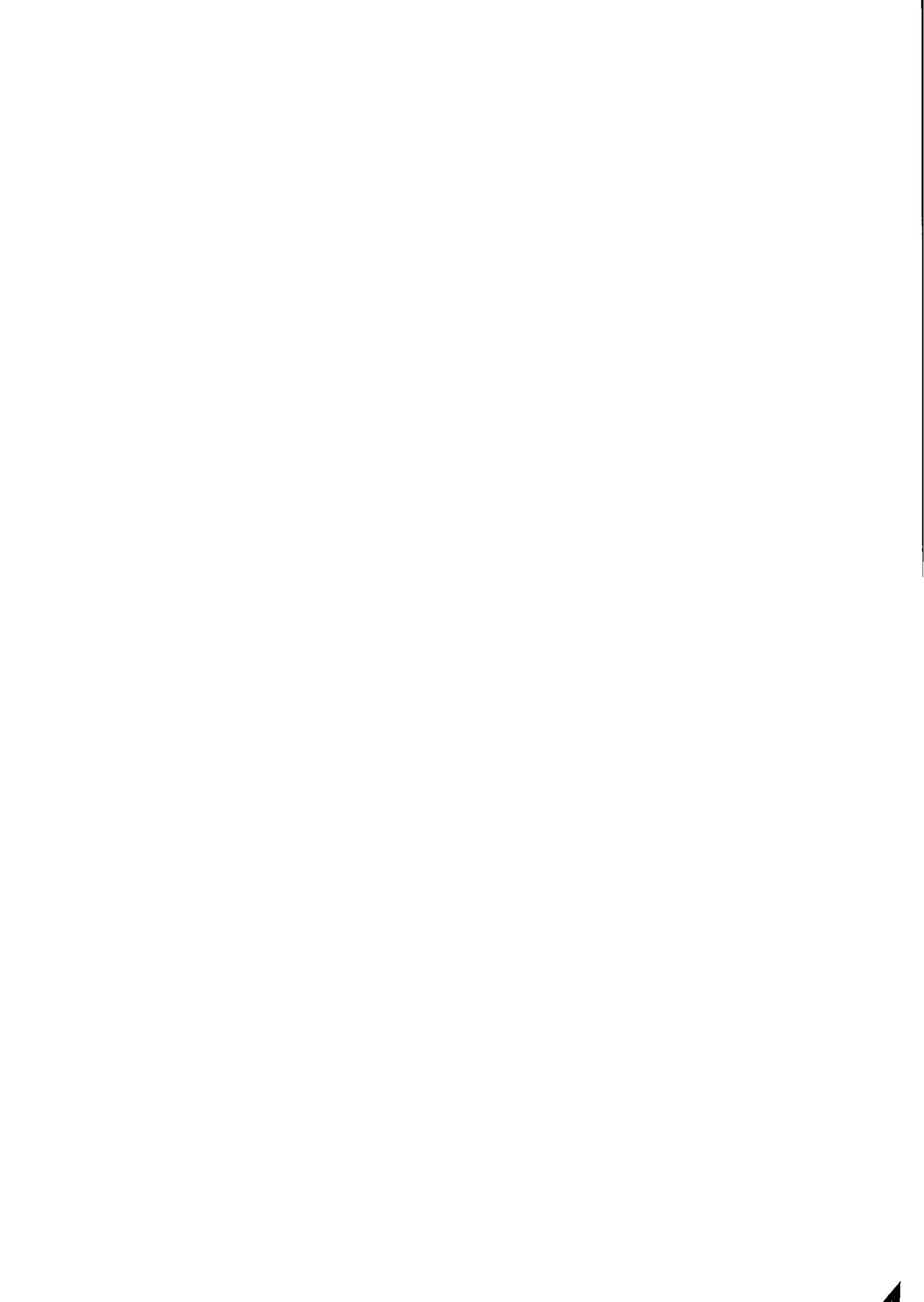
(٢) السابق: (ص١٦١).



القسم الثاني

كيف تسير في طريق السعادة

حتى تسعد في الدنيا والآخرة



وبعد هذه الأدلة الكثيرة المتضافرة، وهذه الشواهد والشهادات على أن طريق السعادة هو طريق الطاعة والعبادة لرب الأرض والسماوات، قد يسأل سائل كيف أسلك هذا الطريق حتى أسعد في الدنيا والآخرة، وأنجو من الضنك والشقاء؟ فالجواب ـ والله الهادي للصواب ـ: التوفيق بيد الله عز وجل، فأسأل الله أولاً التوفيق والسداد والهدى والرشاد، فليس الأمر في كثرة السعي فقد وصف النبي ﷺ الخوارج فقال: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم وقراءته إلى قراءتهم، ـ ثم قال ـ: يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1].

إذا لم يَكُنْ مِنَ اللهِ عَونٌ لِلْفَتى فَأَوَّلُ ما يَجْنِي عَلَيْه اجْتِهَادُهُ

فعليك أخي القارىء الكريم بالإخلاص، والالتجاء إلى الله عز وجل بالدعاء والرجاء، حتى توفق للعلم والعبادة والسعادة.

وإن من أهم ما يسعد به العبد معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وربوبيته وإلٰهيته، والتعرف على الرسل الكرام، والملائكة، والكتب، والإيمان باليوم والآخر. وهو يوم القيامة وما قبله وما بعده ـ وإني أدعوك خاصة لدراسة القضاء والقدر فإن لمعرفته سعادة في القلوب، وتسليم لعلام الغيوب وغفار الذنوب ما الله عز وجل به عليم، قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قال: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره. قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن

---

(١) رواه البخاري: (١٢/ ٢٩٥) استتابة المرتدين.

ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»، يا بني، إن مِت ولست على ذلك دخلت النار[1].

ومما يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً. فمن رضى بالله عز وجل ربًا رضى بقضائه وقدره. قال الحربي: من لم يؤمن بالقدر لم يتهن بعيش. والرضا بالإسلام دينًا، الرضا بأمره ونهيه، والرضا بمحمد ﷺ رسولاً محبته ومحبة سنته، والذب عنها والدعوة إليها. فهذه أحوال إيمانية وأعمال قلبية توصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وبالجملة كل شرائع الإسلام توصل إلى السعادة، والواجب على المسلم أن يسلم نفسه للشرع المتين، وأن يكون بين يدي الشارع كالميت بين يدي الغاسل، فكل عبادة وطاعة لله عز وجل لها حلاوة وسعادة في قلوب العباد، فكل أمر من الله عز وجل فهو نعمة وسعادة في الدنيا والآخرة، وكل نهي فهو كذلك نعمة من الله عز وجل على العباد، وقد نزل على النبي ﷺ بعرفة يوم عرفة في حجة الوداع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهذه ليست آخر آية نزولاً، وقد نزل بعدها قرآن، إلا أن بنزولها تم التشريع، فما نزل بعدها أمر ولا نهي، فتمت نعمة الله عز وجل على العباد بتمام التشريع، فمهما اتبع العباد أمر الله

---

(١) رواه أبو داود: (رقم٤٦٧٥ ـ عون) السنة، والترمذي: (٨/٣١٩، ٣٢٠ ـ عارضه) القدر، وأحمد: (٥/٣١٧)، وقال الترمذي: وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وصححه الألباني.

عز وجل وانتهوا عما نهى عنه، فإنهم يسعدون في الدنيا والآخرة، ومهما تمرد العباد على الشرع المتين وخالفوا أوامر الله رب العالمين فإنهم يشقون في الدنيا والآخرة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وقد ظهر في هذه الرسالة معيشة الكفار والفجار، والضنك الذي يعيشونه، وهو علامة على ضنك الآخرة، وكذا سعادة المؤمنين بالطاعة والعبادة هو علامة على سعادة الآخرة، فالله عز وجل يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فإذا خالف العبد أمر الله فإنه هو الذي يشقى، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، ومن استجاب لأمر الله عز وجل وجد من حلاوة الإيمان والاستعلاء على الشهوات، ومن الفرح بالله عز وجل، ومن الثواب في الآخرة ما هو أعظم بكثير من الشهوات المحرمة، وقس على ذلك، فالمؤمن يسعد دائمًا بطاعة الله عز وجل، والاستجابة لأمره ونهيه.

ومما يسعد به العبد كذلك في الدنيا والآخرة أن يكون كله لله عز وجل، فمن الناس من يبخل على الله عز وجل بباطنه وظاهره، فهو مشغول مشغوف بالشهوات المحرمة، يرضى بالدون، ويزين الشيطان له ما هو فيه من إعراض وتمرد على الله عز وجل، وهذه حال الأشقياء، ومن الناس من يعطي لله عز وجل ظاهره، ويبخل عليه بباطنه، فهو يقف في الصف مع المصلين، ويخرج مع الحجاج والمعتمرين، ولكن قلبه في الشهوات يهيم كما قال بعضهم:

يخبرني البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضًا فنائم

فهو أحسن حالاً ممن هو كله للشيطان، ولكن لا تتم سعادة مثل هذا ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من كان مع الله عز وجل بباطنه وظاهره، ففي

قلبه الحب والإخلاص والرغبة والرهبة والإبنانة والتوكل على الله عز وجل، وهو بظاهره مشغولٌ بالطاعة والعبادة، فهو يصلي يستريح بالصلاة كما قال النبي ﷺ: «أرحنا بها يا بلال»[1]، وكان إذا حزبه أمرٌ هرع إلى الصلاة، بل الصلاة قرة عينه ومنتهى راحته، كما قال ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2]، فهو يستحضر في الصلاة أنه يناجي ربه، ويكلم مولاه، قال بعض السلف: أنا منذ أربعين سنة ما أزعجني إلا طلوع الفجر.

وإذا أراد أن يكلمه ربه قرأ القرآن، فإذا قال الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا، أحضر سمعه وقلبه، وانتظر أمرًا فيه صلاح وخير له في العاجل والآجل، فهو دائم القرب والتقرب إلى الله عز وجل، ذاكر للآخرة دائمًا كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٤ ـ ٦٥]، فهو حاضر القلب دائمًا يستحضر اطلاع الله عز وجل على قلبه في كل لحظة، ويستحضر معيته فيأنس به، ويسعد به، ويتقوى به، ويستغني به، لا يفتر لسانه عن ذكر الله عز وجل، وقد قال بعض السلف: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل، إذا استيقظ من الليل فأول ما ينطق به لسانه ذكر الله وتوحيده، كما قال النبي ﷺ: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله،

---

(١) رواه أبو داود: (رقم٤٩٦٤ ـ عون) الأدب، وقال في تحقيق «جامع الأصول»: (٦/ ٢٦٣)، وإسناده صحيح.

(٢) سبق تخريجه.

ثم قال: اللهم اغفر لي ـ أو دعا ـ استجيب، فإن توضأ قبلت صلاته»[1].

إذا سمع النداء وقول المؤذن: الله أكبر، يهرع إلى المسجد لأن الله عز وجل في قلبه أكبر من كل شيء، فلا يجوز له أن يشتغل بغيره ويتلمس هدي النبي ﷺ إذا صلى الفجر جلس في مصلاه يستقبل يومه بالعبادة والطاعة، فيذكر الله عز وجل حتى ترتفع الشمس، فيصلي سنة الإشراق، وينال في بداية يومه أجر حجة وعمرة تامة تامة، فهو ينتقل من طاعة إلى طاعة، ومن عبادة إلى عبادة، ومن سعادة إلى سعادة، يفتح على نفسه أبواب النوافل عملاً بقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلَيَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه . . »[2] الحديث.

فمهما تولى العبد ربه بالإخلاص والعبادة والطاعة يتولاه الله عز وجل بالتأييد والنصرة، وقبول دعوته، وتفريج كربته، فمثل هذا يفتح عليه من المعارف والأحوال الإيمانية، والسعادة في الدنيا والآخرة ما الله به عليم.

والعبد لا يصل كذلك إلى هذه الدرجات العالية من الإيمان والعمل الصالح إلا بترويض نفسه على العبادة، وتطويع نفسه لله عز وجل، فالنفس جاهلة لا تعلم أين مصلحتها، فإذا ذاقت حلاوة الإيمان وعرفت أن صلاحها وفلاحها ونجاتها ونجاحها في الدنيا والآخرة في الطاعة والعبادة، فإنها تساعد صاحبها على الطاعة والعبادة، كما قال ابن المبارك: إن

---

(١) رواه البخاري: (٣/ ٤٧ ـ ٤٨) التهجد.

(٢) تقدم تخريجه.

الصَّالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا، فينبغي علينا أن نكرهها.

فالعبادات تثقل على النفوس الجاهلة، وترك الشهوات المحرمة يصعب كذلك على النفوس الجاهلة، ولكن الواجب على المسلم أن يُكره نفسه على الطاعات والعبادات وترك المحرمات، ويلزم نفسه بالصراط المستقيم في الدنيا حتى يخف على صراط الآخرة، فمن لم يكن من أهل القيام والصيام يحاول أن يتدرب على قيام جزء قليل من الليل، فيستيقظ قبل الفجر بنصف الساعة، ويداوم على ذلك مدة حتى يجد حلاوة القيام، ثم يزداد طاعة بزيادة القيام حتى يصل إلى أحسن الهدي كما قال النبي ﷺ: «سددوا وقاربوا»[1] فمن لم يتمكن من السداد يقارب السداد وهو الهدي النبوي المبارك، كذا يتدرب على صيام يوم في الأسبوع أو ثلاثة أيام في الشهر، ولتكن البيض، ويستمر على ذلك مدة، حتى يصير من أهل الصيام، فيصوم الاثنين والخميس وأيام البيض، وكذا في الصدقة، وبذلك يطلب العبد الهداية والطاعة، والله تعالى يزيد الذين اهتدوا هدى، وهذا هو سبيل العبادة والسعادة في الدنيا والآخرة.

فهذه مقدمة بين يدي الشطر الثاني من البحث، وهو كيف تسير في طريق السعادة حتى تنال سعادة الدنا والآخرة، وسوف نشير بشيء من الإسهاب إلى أمور ثلاثة عليها مدار السعادة فمن استكملها استكمل السعادة في الدنيا والآخرة، ومن حرم من التوفيق إليها حرم من السعادة بحسب ما حرم منها.

---

(١) رواه البخاري: (١١/ ٣٠٠) الرقاق.

* **وهذه الأمور الثلاثة هي:**

الأمر الأول: الإيمان بالله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

الأمر الثاني: اتباع سنة النبي ﷺ ولزوم طريقته، فكلما كان المسلم أكثر اتباعاً لرسول الله ﷺ كان أسعد به في الدنيا والآخرة.

الأمر الثالث: تعهد العبد نفسه بالطاعات والعبادات، ونخص بتفصيل الذكر كذلك خمس طاعات وهي: طلب العلم النافع، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.

والله الموفق للطاعات والهادي لأعلى الدرجات.

الإيمان وأثره في الوصول إلى السعادة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يُسَرُّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده، وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحبِّ لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة (لا إله إلا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك[1].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يتحقق للعبد مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، علمًا وحالاً فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الألوهية، فإنه إذا تيقن أن الضرر والنفع والعطاء والمنع والهدى والضلال والسعادة والشقاء كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف شاء، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول

---

(١) «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (ص٧٢) ط. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأن أصح القلوب وأسلمها . . من اتخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب فتنساق المحاب تبعًا لها، كما ينساق الجيش تبعًا للسلطان، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخلوقات، فتنساق المخاوف كلها تبعًا لخوفه، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه، فهذا علامة توحيد الألوهية في هذا القلب(١).

ولاشك في أن الأصول الستة التي أوجب الله عز وجل علينا الإيمان بها هي الأصول التي بعث الله عز وجل بها كل رسول كما قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

قال الشيخ سيد سابق ـ حفظه الله ـ:

وما شرعه الله لنا من الدين ووصانا به كما وصى رسله السابقين هو أصول العقائد وقواعد الإيمان، لا فروع الدين ولا شرائعه، فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكري والروحي: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثم قال ـ حفظه الله ـ: وإنما جعل الله هذه العقيدة عامة للبشر وخالدة على الدهر لما لها من الأثر البيِّن والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات.

فالمعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة، وتوقظ حواس الخير، وتربي ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالي الأمور وأشرفها، وتنأى بالمرء عن محقرات الأعمال وسفاسفها.

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم: (١/ ٤١١).

والمعرفة بالملائكة تدعو إلى التشبه بهم، والتعاون معهم على الحقِّ والخير، كما تدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة.

والمعرفة بالكتب الإلٰهية إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان، كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي.

والمعرفة بالرسل إنما يقصد بها ترسم خطاهم، والتخلق بأخلاقهم، والتأسي بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس.

والمعرفة باليوم الآخر هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر.

والمعرفة بالقدر تزود المرء بقوى وطاقات تتعدى كل العِقبات والصعاب، وتصغر دونها الأحداث الجسام.

وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك، وتزكية النفوس، وتوجيهها نحو المثل الأعلى، فضلاً عن أنها حقائق ثابتة، وهي تعد من أعلى المعارف الإنسانية إن لم تكن أعلاها على الإطلاق[1].

وأول واجب على المكلف هو معرفة الله عز وجل بالدليل قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وأول أمر في كتاب الله عز وجل أمر بالتوحيد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وما أتى الأمر بالتوحيد في كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ مع

---

(١) «العقائد الإسلامية»: (ص٩، ١٠) بتصرف.

مجموعة من الأوامر إلا كان الأمر بالتوحيد أولها، وكذا ما أتت مجموعة من النواهي وفيها النهي عن الشرك إلاَّ كان النهي عن الشرك أولها، فما أمرت الرسل بشيء قبل الأمر بالتوحيد، وما نهت عن شيءٍ قبل النهي عن الشرك، وما أرسل الله عز وجل رسولاً إلا قال لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فإذا هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة».

فلما كانت معرفة الله عز وجل بهذه الأهمية في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وكانت كذلك في جميع الرسالات المتقدمة، عُلِمَ أن النفس البشرية لا تستغني عنها في حالٍ من الأحوال، وأن قلوب العباد لا تصلح ولا تفلح إلا بمعرفة الكبير المتعال، وأن القلوب مهما تعلقت بغير ربها وفاطرها لزمها البؤس والبخس والشقاء.

يقول الدكتور/ محمد بن سعد الشويعر:

راحة النفس لا تكون إلا بالإيمان، ورخاء المجتمع لا يكون إلا بالأمان، والأمان ثمرة من ثمارة الإيمان، وحصيلة من حصائل العقيدة الصافية، والإيمان والعقيدة الصافية لا يكونان إلا بعد الدخول في الإسلام وفهمه جيِّدًا وتطبيقه عملاً.

ونفس لا إيمان فيها تبقى مضطربة وقلقة وتائهة وخائفة:

فأما اضطرابها فلأنها كالسفينة التي تتقاذفها الرياح في البحر، فتموج بها تقلبات الجو يمينًا وشمالاً، وتتقاذفها العوامل المؤثرة التي تطغى عليها، فهي لم تجد ما يرسيها أو يوصلها لِبَرِّ الأمان، لأن كل نفس تأخذ مصدرًا تشريعيًّا في سلوكها، أو منهجًا عقديًّا في تصرفاتها، غير المصدر الذي أوجده الله للمؤمنين، وارتضاه سبحانه لعباده، وبعث به رسله، فإنه لا يلبي رغبة، ولا يريح نفسًا، ولا يحقق هدفًا.

والمصدر الذي ارتضاه الله هو كتابه القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من عزيز حكيم، ثم ما بلغ به المصطفى من وحي عن ربه أو أوضحه من شرع لصالح الأمة، وإنقاذهم من الضلالة، مما يعالج ما يختلج في النفوس، ويؤرق الضمائر.

وبهذين المصدرين تسكن النفس من اضطرابها، وترتاح في مسيرتها، وتطمئن على حاضر أمرها ومستقبله[1].

يقول الأستاذ محمد عبد الله الخطيب:

الفرد بغير دين ولا إيمان ريشة في مهب الريح، لا تستقر على حال ولا تعرف لها وجهة، ولا تسكن إلى قرار مكين، الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له امتداد ولا جذور، إنسان قلق متبرم حائر، لا يعرف حقيقة نفسه، ولا سر وجوده، ولا يدري من ألبسه ثوب الحياة؟ ولماذا ألبسه إياه؟ ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟ وهو بغير دين ولا إيمان: حيوان شَرِه، أو سبع فاتك، لا تستطيع الثقافة ولا القانون وحدهما مهما بلغا من القسوة أن يحدا من شراهته، أو يقلما أظافره.

---

(١) «مجلة البحوث الإسلامية»: (١٧/ ١٥٦ ـ ١٥٧).

توعد الزوج زوجته وغضب عليها فقال لها مهددًا: لأشقينك.

فقالت الزوجة المؤمنة في هدوء: لا تستطيع أن تشقيني، كما أنك لا تملك أن تسعدني؟

فقال الزوج في غيظ: وكيف لا أستطيع؟

فقالت الزوجة في ثقة: لو كانت السعادة في راتب لقطعته عني، أو زينة من الحلي لحرمتني منها، ولكنها في شيءٍ لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون.

فقال الزوج في دهشة: وما هو؟

فقالت الزوجة في يقين: إني أجد سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي.

هذه هي القوة الحقيقية، وهذا هو استعلاء الإيمان[١].

---

(١) «الدقائق الغالية ـ الصلاة»: (ص٧٦ ـ ٧٧).

(١) الإيمان بالله عز وجل وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة.

لاشك في أن كمال سعادة العباد في كمال عبوديتهم لله عز وجل، ولذا كانت غاية التزكية عند أهل السنة تحقيق كمال العبودية لله عز وجل، وقد وصف الله عز وجل أكابر خلقه بالعبودية، وشرفهم بوصفها فقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال في وصف نبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولاشك كذلك في أن معرفة الأسماء والصفات يستلزم كذلك توحيد الألوهية وتحقيق كمال العبودية فيكون ذلك من أعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فإنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزته تثمر له الخضوع والاستنكانة والمحبة..

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات[(١)].

وقد ربط النبي ﷺ بين إحصاء التسعة والتسعين اسمًا من أسماء الله عز وجل بدخول الجنَّة، ولا يدخل جنة الآخرة ويخلد في نعيمها إلا من دخل جنة الدنيا، وهي معرفة الله عز وجل ومحبته وفرح القلب به والشوق إلى لقائه، فقال ﷺ: «إن للهِ تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنَّة»[(٢)].

وقد اختلف العلماء في معنى قوله ﷺ: «من أحصاها»، فقال البخاري وغيره من المحققين: معناه حفظها. وأن إحدى الروايتين مفسرة للأخرى. وقال الخطابي: يحتمل وجوه: أن يعدها حتى يستوفيها، بمعنى لا يقتصر

---

(١) «مفتاح دار السعادة»: (٢/ ٩٠).

(٢) رواه البخاري: (١١/ ٢١٤) الدعوات، ومسلم: (١٧/ ٥، ٦) الذكر والدعاء. ورواه الترمذي وابن ماجه بزيادة سرد الأسماء، ورجح ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن سرد الأسماء مدرج فيه.

على بعضها، فيدعو اللهَ بها كلها، ويثني عليه بجميعها فيستوجب الموعود عليه من الثواب. ثانيًا: المراد بالإحصاء الإطاقة، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بموجبها، فإذا قال الرزاق وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء.

وقال ابن بطال: طريق العمل بها أن ما كان يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يخص الرب جل وعلا كالجبار والمتكبر فعلى العبد الإقرار بها والخضوع لها، وعدم التحلي بصفةٍ منها، وما كان فيه معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة[1].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له أو أمرًا. ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى[2].

ثم قال: مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

والمرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

والمرتبة الثالثة: دعاؤه بها، دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة، فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها[3].

---

(١) «معارج القبول»: (١/ ٧٥ ـ ٧٦) باختصار.

(٢) «بدائع الفوائد»: (١/ ١٦٣).

(٣) السابق: (١/ ١٦٤).

ولكل اسم من أسماء الله الحسنى تأثير عظيم يؤدي إلى محبة الله سبحانه والخشية منه والتقرب إليه بالعمل الصالح.

ومن هذه الأسماء «الحليم» و«الغفور» و«الرحيم» فهي أكبر مؤثر في نفوس العباد ليسارعوا إلى التوبة ويقلعوا عن المعاصي والذنوب، وقد حَثَّ الله عز وجل عباده على التوبة ودفعهم إليها بإخبارهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى من المغفرة والرحمة فقال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وحثهم عز وجل على مراقبته وتقواه في السِّرِّ والعلن، بإخباره إياهم باسمه الرقيب فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فالله سبحانه مراقب لجميع أحوال عباده وأعمالهم، وفي هذا تنبيه لهم وإرشاد بأن يراقبوا ربهم ويخلصوا له سبحانه(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه(٢).

* **أثر عقيدة الفوقية في قلب المؤمن:**

قال أبو محمد الجويني ما ملخصه:

العبد إذا أيقن أن الله تعالى فوق السماء عالٍ على عرشه بلا حصر ولا كيفية، صار لقلبه قبلة في صلاته وتوجهه ودعائه، ومن لا يعرف ربه بأنه فوق سماواته على عرشه فإنه يبقى ضائعًا لا يعرف وجهة معبوده، لكن لو عرفه بسمعه وبصره وقدمه وتلك بلا هذا الإيقان معرفة ناقصة، بخلاف

---

(١) «منهج الإسلام في تزكية النفس»: (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤) بتصرف.

(٢) «مدارج السالكين»: (٣/ ٤٦٨).

من عرف أن إلٰهه الذي يعبده فوق الأشياء، فإذا دخل في الصلاة وكبر توجه قلبه إلى جهة العرش، منزِّهًا ربه تعالى عن الحصر، مفردًا له كما أفرده في قِدَمِهِ وأزليته، ويعتقد أنه في علوه قريب من خلقه هو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيئته، وذاته فوق الأشياء فوق العرش، ومتى شعر قلبه بذلك في الصلاة أو التوجه أشرق قلبه واستنار وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان، وعكسته أشعة العظمة على عقله وروحه ونفسه، فانشرح لذلك صدره، وقوي إيمانه، ونزه ربه عن صفات خلقه من الحصر والحلول، وذاق حين ذاك من أذواق السابقين المقربين، بخلاف من لا يعرف وجهة معبوده، وتكون الجارية راعية الغنم أعلم بالله منه فإنها قالت: «في السماء» عرفت بأنه على السماء فإن «في» بمعنى «على»، فمن ثم تكون راعية الغنم أعلم بالله منه، لكونه لا يعرف وجهة معبوده، فإنه لا يزال مظلم القلب لا يستنير بأنوار المعرفة والإيمان[1].

وعلم التعبد بأسماء الله عز وجل الحسنى علم عزيزٌ في الخلق، فإذا وقفت على شيءٍ منه عن علماء السلف فعض عليه بالنواجذ، وأحضر قلبك معانيه، فلا تشرق شمس الإيمان في قلوب العباد كما تشرق بمعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته، والذين فتح لهم في هذا العلم أفراد من العباد، جمعوا بين علم السلف والزهد والعبادة والسعادة، وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية، وهذه بعض كلماته من كتاباته التي تشع نورًا وإيمانًا تسعد بها النفوس وتحيا بها القلوب.

---

(١) نقلاً عن مقدمة الألباني لكتاب «مختصر العلو» للجويني، ورجح أخونا الفاضل محمد حسن عبد الحميد بأن الرسالة لابن شيخ الحَزَّامين: (ص٧٧، ٧٨).

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التعبد بأسمائه «الأول والآخر والظاهر والباطن»:

والتعبد بهذه الأسماء رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيءٍ، والآخرية بعد كل شيءٍ، والعلو والفوقية فوق كل شيءٍ، والقرب والدنو دون كل شيءٍ، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيءٌ أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيءٍ، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره، والوثوق بسواه، والتوكل على غيره.

فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه، فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القِدَم، أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، وَاسْمُ بهمتك عن ملاحظة الاختيار، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية، التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان للهِ كما يريد كان اللهُ له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد، ثم اسم بسرك إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك على من سبق فضله وإحسانه

إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأ لك وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة، فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها.

فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه، وخلع أفضاله: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد سبحانك وبحمدك.

ثم تعبد باسمه «الآخر»، بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى ينتهي إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه «الظاهر».

وأما التعبد باسمه «الباطن» فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبُدُوّ السَّرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك فإنه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله، وجماع العبودية له، فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته، فلا يرى لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه أو يتحلى به[1].

---

(١) «طريق الهجرتين»: (ص٢٤ ـ ٢٦) باختصار، ط. السلفية.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفوائد»:

تأمل خطاب القرآن تجد ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزِمَّةُ الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستويًا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيى، ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك في ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة، إن أطاعوه وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه بأوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده بفقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ماسواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحدٌ ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويشهد من

خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنه، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا وَلِيَّ لهم سواه، فهو مولاهم الحق، ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير، فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلاً هذا شأنه فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه، وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها، ودواؤها، بحيث إذا فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها[1].

وبعد، لعلك توافقني في أن العبد الذي يفتح عليه في معرفة الله عز وجل ومحبته يجد السعادة التي طالما كان يطمع فيها، ويتطلع إليها، ولاشك أننا بهذه العلوم والمعارف العالية كأننا خرجنا من سجن ضيقٍ إلى بستان فسيح مليء بالأزهار والأطيار والثمار.

وهكذا المؤمن كلما ازداد إيمانه وعلا يقينه ينفسح صدره، وتتسع معارفه، وتعظم سعادته، وتحسن عاقبته في الدنيا والآخرة.

فأصول الإيمان الستة ليست أمورًا جامدة، وجب على العباد أن يصدقوا بها، ولا أثر لها في قلوبهم، أو واقع حياتهم وسعادتهم، وإنما مدار حياتهم ولذتها وسعادتها على معرفتها، واليقين بها، واستشعار معانيها، واستنشاق نسيمها، ولذا من فقد هذه المعارف والعلوم والأحوال

---

(١) «الفوائد» لابن القيم: (ص٢١ ـ ٢٢) بتصرف، دار الحديث.

الإيمانية يضيق عليه صدره، ويفقد السعادة المنشودة والدرة المفقودة، لذا يُصاب كثير منهم بالحزن والاكتئاب، ويلجأ بعضهم إلى المخدرات والانتحار، ظنًّا منهم أنه يتخلصون بذلك من الضنك والشقاء، وإنما هم ينقلبون من شقاء الدنيا إلى شقاء الآخرة، ومن عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة، نسأل الله العافية.

فانظر - رحمك الله - إلى حاجة القلوب إلى ربها، وفقرها إلى خالقها واضطرارها إليه، إنها لا تسعد إلا به، ولا تطمئن إلا بذكره، ومهما ازدادت معرفتها به ازدادت سعادتها، ومهما أعرضت عنه لزمها البؤس والنكد والشقاء. واقرأ - أيضًا - هذه الكلمات لشيخ الصنعة ابن القيم، وهي تتلألأ كالجواهر، وتضيء كالمصابيح، وتفتح على العبد أبواب المعرفة والسعادة والأحوال الإيمانية والعبادة.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به، أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء كما قيل:

يُـرَادُ مِـنَ الْقَلْـبِ نِسْيَـانُكُـمْ وَتَـأْبَـى الطِّبَـاعُ عَلَـى النَّـاقِـلِ

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه وحادى الرجاء يحدو ركابَ سيره، وكلما قوي الرجاء جَدَّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر وإذا ضعف رجاؤه قصَّر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أَعِنَّة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، انبعث منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكيرها، والتصديق بالخير، والامتثال للطلب والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصفة السمع والبصر والعلم، انبعث من العبد قوة الحياء، فيستحي ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفى في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصرُهُ لأوليائه وحمايته لهم، ومعيته الخاصَّةُ لهم، انبعث من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به، وما في كل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العِزِّ والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلٰهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلٰهية المحبة الخالصة، والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلٰهيته، وإلٰهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته، وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآنَ، وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزهٌ عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها

إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ[1].

وبعد، لعلنا أطلنا النقل من كلام علم الأعلام، وطبيب القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ولكنه كلام كما يظهر للقارىء الكريم يكتب بماء الذهب.

والعجب من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي صدر منه هذا الكلام الذي يدل على علو كعبه في الإيمان، وارتفاع رتبته وسمو درجته يقول هضمًا لنفسه في «طريق الهجرتين»:

فوا أسفاه، ووا حسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرة وأسفًا. اللهم فَلَكَ الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك[2].

* * *

(١) «الفوائد»: (ص٥٣، ٥٤).

(٢) «طريق الهجرتين»: (ص١١).

(٢) الإيمان بالملائكة وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة.

الإيمان بالملائكة من أصول الإيمان الستة التي لا يسعد عبد في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان بها جملةً وتفصيلاً، أي: إجمالاً فيما أُجمل من أخبارها، وتفصيلاً فيما فُصِّل.

والملائكة أجسام نورانية، أي: خلقت من النور، ذوات أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وهم مستغرقون في طاعة الله عز وجل وعبادته لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم منزهون عن المعاصي والشهوات، خائفون وجلون من رب الأرض والسماوات، وهم يختلفون بحسب وظائفهم في طاعة الله عز وجل، فمنهم الموكل بالوحي من الله عز وجل إلى الرسل الكرام، وهو جبريل عليه السلام وهو قوي أمين، ذو هيئة عظيمة، عند ذي العرش مكين.

ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام.

ومنهم الموكل بالمطر وهو ميكائيل عليه السلام.

وهؤلاء الثلاثة ثبتت أسماؤهم بالوحي، ولم يثبت تسمية ملك الموت، بأن اسمه عزرائيل كما اشتهر عند العوام، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، وهم خلق عظيم من خلق الله عز وجل، ومع عظم خلقهم واجتهادهم في عبادة ربهم عز وجل في غاية الخوف من الله عز وجل، والإشفاق من عذابه، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وهم منظمون في جميع أمورهم، ولذا أمر النبي ﷺ الصحابة الكرام

بالتشبه بهم فقال ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قالوا: وكيف يصفون عند ربهم؟ قال: «يكملون الصف الأول فالأول ويتراصون في الصف»[1].

وهم يحبون أماكن الطاعة ويتوافدون إليها كَحِلَقِ الذكر، والمساجد، ويكرهون أماكن المعاصي فلا يدخلون بيتًا فيه كلب أو صورة[2].

والملائكة لا يملون من طاعة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصلت: ٣٨].

فهذه جملة من صفات للملائكة ثبتت بالقرآن والسنة الصحيحة.

وكما أسلفنا الإيمان له أثر عظيم في النفس البشرية، فلا تصلح ولا تفلح ولا تسعد في الدنيا والآخرة إلا به، **فما هو الأثر الإيماني، والثمرة والسعادة في الإيمان بالملائكة.**

١ ـ الإيمان بالملائكة هو اتباع لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وما سعدت القلوب في الدنيا والآخرة بمثل امتثال أوامر الله عز وجل، وما شقي من شقي إلا بمخالفة أمره وارتكاب نهيه.

---

(١) رواه مسلم: (٤/ ١٥٣) الصلاة، وأبو داود: (رقم٦٤٧) الصلاة، والنسائي: (٢/ ٩٢) الإمامة.

(٢) **قال القرطبي في «المفهم»**: إنما لم تدخل الملائكة البيت الذي فيه الصورة؛ لأن متخذها قد تشبه بالكفار؛ لأنهم يتخذون الصور في بيوتهم، ويعظمونها، فكرهت الملائكة ذلك فلم تدخل بيته هجرًا له لذلك.

٢ ـ من الثمرات الطيبة للإيمان بالملائكة أن يستأنس بهم المؤمنون، ويسعد بحبهم وصحبتهم العباد الصالحون، فهم عباد من عباد الله الصالحين، فمهما كان العبد مجتهدًا في طاعة الله يكفُّ جوارحه عن معاصي الله، فله في الملائكة أسوةٌ فإذا كان المؤمن يعيش في أزمنة غابرة متأخرة، عَزَّ فيها من يعمل بطاعة الله عز وجل، وكثر فيها من يعمل بمعصية الله فالمؤمن يأنس في أزمنة الغربة بالملائكة الذين يعملون معه بطاعة الله، ويكفون عن معصيته، ويزداد هذا الأنس بالملائكة إذا علم أن من وظيفة الملائكة تثبيت المؤمنين على طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ٢]، وإن كان سبب نزول الآية غزوة بدر، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، ليس المراد عند الموت وحده كما أشار إلى ذلك العلماء، بل الملائكة تتنزل على المؤمنين في كل وقت وحين، تدفع عنهم الخوف والحزن، وتبشرهم بوعد الله عز وجل للمؤمنين، فكيف لا يكون الإيمان بالملائكة من أعظم أسباب السعادة وذهاب الهموم والغموم والأحزان، والله المستعان.

٣ ـ من ثمرات الإيمان بالملائكة محبة الله عز وجل، واستشعار المؤمن فضله ورحمته؛ لأنه وظف ملائكة يحفظون العباد، كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، أي: ملائكة بأمر الله عز وجل تحفظ العباد، فإذا جاء القدر تخلوا عنه، حتى ينفذ فيه قدر الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

٤ ـ ومن ثمرات الإيمان بالملائكة محبتهم؛ لأنهم جميعًا أولياء لله عز وجل، عاملين بأمره، وقد زعمت يهود أن لهم أولياء وأعداء من الملائكة، فزعموا أن جبرائيل عدو لهم ينزل بالعذاب، وميكائيل ولي لهم، فأكذبهم الله عز وجل، وبين أن من عادى ملكًا واحدًا من ملائكته فقد عادى جميع الملائكة، والله عز وجل ولي من تولاه، فمن عادى ملائكة الله عز وجل فهو عدوٌّ لله، والله عز وجل عدو للكافرين، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧ ـ ٩٨].

ومما يزيد محبة المؤمن للملائكة وسعادته بحبهم علمه بمحبة الملائكة للمؤمنين، فالملائكة من حملة العرش ـ وهم أشرف ملائكة الله عز وجل ـ ومع عظم ما كلفوا به ـ لا يشغلهم ذلك عن الاستغفار للمؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقال النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»[1].

---

(١) رواه البخاري: (٢/ ٣٣) مواقيت الصلاة، ومسلم: (٥/ ١٣٣) المساجد.

فلما علمت الملائكة أن سؤال الله عز وجل لهم: كيف تركتم عبادي؟ يستجلب لعباده المؤمنين مزيدًا من التشريف والتكريم والرحمة زادوا في موجب ذلك فقالوا: وأتيناهم وهم يصلون.

وهذه المحبة لاشك من سعادة المؤمن، فإن المؤمن يزداد فرحًا وسعادةً بإخوانه المؤمنين إذا زاد عددهم، ويحزن على فقدهم أو فقد بعضهم وهذا بلاشك حب في اللهِ، وهو من أوثق عرى الإيمان.

٥ ـ ومن ثمرات الإيمان بالملائكة التشبه بهم، في مداومتهم على الطاعة بلا مِلال ولا كلال، وكذا بغضهم للمعاصي وأهلها وأماكنها، ومحبتهم للطاعة وأهلها وأماكنها وكذا نظامهم في جميع أمورهم، كما حَثَّ النبي ﷺ الصحابة الكرام على التشبه بهم في انتظامهم وتراص صفوفهم، وإكمال الأول فالأول.

ومهما كان العبد مُنظمًا في أموره مداومًا على طاعة ربه، محبًّا للخير وأهله، مبغضًا للكفر وأهله، فإنه تتم بذلك عبوديته وسعادته في الدنيا والآخرة.

٦ ـ ومن ثمرات الإيمان بالملائكة أن يتدرب العبد على البعد عن إيذاء الآخرين، فإنه إذا كان يراعي عدم إيذاء الملائكة مع أنه لا يراهم كما قال النبي ﷺ: «من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[(١)].

ولاشك في أن رائحة السجائر وغيرها أخبث رائحة من الثوم

---

(١) رواه البخاري بمعناه: (١٣/ ٣٣٠) الاعتصام، ومسلم بلفظه: (٥/ ٥٠) المساجد، وأبو داود: (رقم٣٨٠٤ ـ عون) الأطعمة، والترمذي: (٧/ ٣١٢ ـ عارضة) الأطعمة، والنسائي: (٢/ ٤٣) المساجد.

والبصل، وقوله ﷺ: «من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا» ليس رخصة في ترك الجماعة، وإنما هو يعاقب بحرمانه من صحبة المؤمنين ومشاركتهم في الخير، وصحبة الملائكة لأن رائحة فمه مستقذرة.

٧ ـ ومن ثمرات الإيمان بالملائكة زيادة الإيمان بعظمة الله عز وجل، فالملائكة خلق عظيم من خلق الله عز وجل، قال النبي ﷺ: «أُذن أن أتحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه وعاتقه تخفق الطير خمسمائة عام»(١).

وقال ﷺ: «لا تفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق مَلَكًا قدماه في الأرض السابعة السفلى، ورأسه قد جاوز السماء العليا، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام، والخالق أعظم من المخلوق»(٢).

نهى الشرع المسلم أن يتفكر في ذات الله نهي شفقة، فقلوبنا وعقولنا أقل من أن تحيط بالله عز وجل علمًا لعظمة الله عز وجل، وندبنا إلى التفكر في مخلوقات الله؛ لأن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق، فالتفكر في عظمة الملائكة يدلنا على عظمة الله عز وجل، ومهما ازداد تعظيم المؤمن لربه عز وجل ازداد طاعة له وكَفًّا عن معصيته فسعد في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه أبو داود: (رقم٤٧٢٧) السنة، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (رقم١٥١).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية»: (٦/ ٦٦ ـ ٦٧)، وقال الألباني: هذا إسناد حسن في الشواهد إلى أن قال: فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي: «الصحيحة»: (رقم١٧٨٨).

٨ ـ من الثمرات الإيمانية في الإيمان بالملائكة الحياء من المعاصي إذا استشعر قربهم منه، وكتابتهم لأقواله وأعماله، كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] فيكون حال المؤمن كمن يراقبه رجال من أهل العلم والصلاح، فهو يستحي من مخالفة أوامر الله عز وجل أمامهم، وهذا الحياء ليس مذمومًا، وإنما هو من الحياء الذي كله خير، فقد ندب العلماء إلى مجالسة الصالحين من عباد الله؛ لأن العبد يستحي من المخالفة أمامهم، والملائكة من سادات الصالحين.

* * *

(٣) الإيمان بالكتب وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة.

الركن الثالث من أركان الإيمان هو الإيمان بالكتب المنزلة، وقد سمى الله عز وجل من هذه الكتب القرآن على رسوله محمد ﷺ، والتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، وكذا صحف إبراهيم وموسى، وبيَّن عز وجل في مواضع من كتابه أن الواجب على المسلم أن يؤمن بكل ما نزل على الرسل الكرام، وما أُوتي النبيون من رب الأنام، فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وبيَّن عز وجل ضلال من كفر بالله عز وجل، أو ملائكته، أو كتبه، أو رسله، أو اليوم الآخر فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فمن الإيمان بالكتب الاعتقاد بأنها منزلة من عند اللهِ عز وجل على رسله الكرام بالحقِّ المبين والهدي المستبين، ومن ذلك اعتقاد أن ما فيها كلام الله عز وجل، تكلم به حقيقة، ومنها ما خَطَّه الله عز وجل بيده، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ومن ذلك اعتقاد وجوب ما تتضمنه هذه الكتب من شرائع على الأمم الذين نزلت إليهم هذه الكتب، فوجب على أهل الإسلام أن يعملوا بشرائع القرآن، وكذا كان واجبًا على النصارى العمل بما في الإنجيل، واليهود العمل بما في التوراة، كما أشارت إلى ذلك آيات سورة المائدة.

وكذا اعتقاد أن الكتب يصدق بعضها بعضًا، والقرآن مهيمن على كل هذه الكتب السابقة، كما قال تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: أن ما وافق القرآن من هذه الكتب دل على أنه مما لم تنله أيدي التحريف والتبديل، وما خالفه فهو مُحَرَّفٌ مبدلٌ.

وقد أثبت القرآن تحريف اليهود والنصارى لكتبهم فقال تعالى عن التوراة: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى في حق الإنجيل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ ﴾ [المائدة: ١٤، ١٥].

ومن الإيمان بالكتب أن نعتقد بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأن الكلام صفة من صفات الله عز وجل، فالله عز وجل يتكلم متى شاء بما شاء ويسمع من خلقه من يشاء، **فما هي الآثار الإيمانية في الإيمان بالكتب؟ وكيف تسعد القلوب بهذه العقيدة في الدنيا والآخرة؟**

١ ـ أول ذلك أن الإيمان بالكتب المنزلة اتباع لأمر الله عز وجل، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامر الله، وما شقي من شقي إلا بمخالفة أمره وارتكاب نهيه.

٢ ـ الإيمان بالكتب إيمان بما تتضمنه من شرائع، فالمؤمن يعتقد بأن اللهَ عز وجل ما تركه سدى وهملاً، بل شرع له من الشرائع ما تستقيم به حياته، وما ينظم العلاقة بينه وبين اللهِ عز وجل، وبينه وبين عباد اللهِ، ومهما اتبع العبد هذه الشريعة فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، فما كلفنا

الله عز وجل به من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وكذا ما شرع في الزواج والطلاق وأحكام البيوع والمعاملات إذا التزم بها العبد استقامت حياته، وانتظمت أموره، وعاش حياة طيبة في الدنيا قبل أن ينقلب إلى سعادة الآخرة، فإحساس المؤمن بأن له منهج حياة وشريعة يسير عليها، وأن الذي رسم له هذا المنهج هو ملك السماوات والأرض ومالك السموات والأرض، وخالق البشر وهو عز وجل يعلم كيف يسعدون في الدنيا والآخرة، وكيف يتنكد عيشهم وتتكدر حياتهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، فهو عز وجل يأمرهم بكل ما فيه خير وصلاح في العاجل والآجل، فيحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ ﴾ [المائدة: ٤]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] فإحساس المؤمن بوجود هذا المنهج، واجتهاده في اتباعه سعادة وحياة طيبة للعباد في الدنيا والآخرة.

٣ ـ اعتقاده بأن القرآن كلام الله تكلم به حقيقة، وهو من فاتحته إلى خاتمته شاهد بذلك، فهو قصصه وتنزيله ووعده ووعيده، فإذا استمع للقرآن فإنه يستحضر في قلبه أن الله عز وجل يهديه ويرشده، ويأمره بما فيه صلاح له في العاجل والآجر، وبما يسعده في الدنيا والآخرة، فهو يفعل ما يأمره الله عز وجل به بفرح واستبشار، ويترك ما نهى الله عز وجل عنه كذلك بفرح واستبشار، وهو يحب القرآن لأنه يعتقد أنه كلام اللهِ، ومن أحبَّ أحدًا أحبَّ كلامه، ومن سره أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن؛ فإذا أحبَّ القرآن فإنه يحب الله، فإن القرآن كلام الله.

وكان ابن مسعود يقبل المصحف ويقول: كلام ربي كلام ربي.

وهذا الحب للقرآن سعادة له في العاجل والآجل، فهذا الحب يدعوه إلى تعلم القرآن والقيام به بالليل والعمل به بالنهار، وكل هذا من السعادة ويوصل إلى الحسنى وزيادة.

٤ ـ ومما يسعد قلب المؤمن في الإيمان بالكتب السماوية، وما تتضمنه من شرائع أن يعرف قيمة الشرائع السماوية عامة، وكيف أنها لهداية البشرية، وأن كل شريعة كانت لأمة من الأمم في وقت من الأوقات، أما شريعة نبينا محمد ﷺ فهي عامة للبشر، وهي خالدةٌ إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها.

قال سيد قطب رحمه الله: إن المؤمن يقف أمام إكمال هذا الدين، يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين.

فماذا يرى؟ يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل، موكب الهدى والنور، يرى معالم الطريق على طول الطريق، ولكنه يجد كل رسول ـ قبل خاتم النبيين إنما أرسل إلى قومه، ويرى كل رسالة قبل الرسالة الأخيرة ـ إنما جاءت لمرحلة من الزمان . . رسالة خاصة، لمجموعة خاصة، في بيئة خاصة، ومن ثم كانت تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه، متكيفة بهذه الظروف، كلها تدعو إلى إله واحدٍ ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلى عبودية واحدة، لهذا الإله الواحد ـ فهذا هو الإسلام، ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة، وحالة البيئة، وحالة الزمان والظروف.

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالته إلى البشر، أرسل إلى الناس كافة رسولاً خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناس في بيئة خاصة في زمان خاص، في ظروف خاصة . . رسالة تخاطب الإنسان . . من وراء الظروف والبيئات والأزمنة؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور، ولا ينالها التغيير، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وفُصِّلَ في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور ويتحور بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية، والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان . . وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلية، وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط، وتوجيهات، وتشريعات، وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار(١).

٥ ـ ومما يسعد به المؤمن كذلك ويعرف فضل الله عز وجل عليه وعلى هذه الأمة، أن الله تعالى وَكَّلَ حفظ الكتب السابقة إلى الربانيين والأحبار، وتولى الله عز وجل حفظ القرآن.

قال الدكتور عمر سليمان الأشقر:

لما كانت هذه الرسالات السابقة مرهونة بوقت وزمان فإنها لا تخلد

(١) «في ظلال القرآن»: (٦/ ٤٨٢).

ولا تبقى ولم يتكفل الله بحفظها، وقد وكل حفظها إلى علماء تلك الأمة التي أنزلت عليها، فالتوراة وكَّل حفظها إلى الربانيين والأحبار ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ كتابهم وخان بعضهم الأمانة، فغيروا وبدلوا وحرفوا، وحسبك أن تطالع التوراة لترى ما فيها من تغيير وتبديل، لا في الفروع بل في الأصول، فقد نسبوا إلى الله ما يقشعر الجلد لسماعه، ونسبوا إلى الرسل ما يترفع الرعاع عن نسبته إليهم.

أما هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفل هو بحفظها، ولم يكل حفظها إلى البشر قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وانظر اليوم في هذا العالم شرقه وغربه، لترى العدد الهائل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب، بحيث لو شاء ملحد أو يهودي أو صليبي تغيير حرف منه فإن صبيًّا صغيرًا أو ربة بيت ـ أو عجوزًا لا يبصر طريقه ـ يستطيعون الرد عليه وبيان خطئه وافترائه، ناهيك عن العلماء الذين حفظوا وفقهوا معانيه وتشبعوا بعلومه.

وانظر إلى تاريخ هذا الكتاب، وكم نال من عناية ورعاية في تدوينه، وتفسيره، وإعرابه، وقصصه، وأخباره، وأحكامه.

وما كان ذلك ليكون لولا ذلك الحفظ الإلٰهي الرباني، وسيبقى هذا الكتاب إلى أن يأذن الله بزوال هذا الكون ودماره[1].

---

(١) «العقيدة في ضوء الكتاب والسُّنَّة ـ الرسل والرسالات»: (ص٢٤١ ـ ٢٤٢)، مكتبة الفلاح ودار النفائس.

(٤) الإيمان بالرسل عليهم السلام وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة.

فمن أصول الإيمان الستة الإيمان بالرسل، والكفر بهم أو بأحد منهم كفرٌ بالإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

قال القرطبي: نصَّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر، وإنما كان كفرًا لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله[1].

والرسل بشر من البشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ولبشرتهم يتزوجون ويكون لهم ذرية كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد: ٣٨].

والرسول لا يكون إلا رجلاً كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [الأنبياء: ٧].

ومع أنهم بشر إلا أنهم أكمل البشر وأشرفهم نسبًا، وأحسنهم خَلْقًا وخُلُقًا ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»: (٣/ ٢٠٠١)، ط. الشعب.

وأفضل الرسل هم أولو العزم منهم وهم خمسة: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم، وقد ذكرهم الله عز وجل في آيتين من كتابه.

وأفضلهم على الإطلاق نبينا محمد ﷺ.

وكلهم صادقون مُصَدَّقون بارُّون راشدون كرام بررة، أتقياء أمناء، هداة مهتدون، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون، والكفر بواحد منهم كفر بجميعهم، قال الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما أرسل إليهم نوح وحده فكان تكذيبهم نوحًا تكذيبًا لكل الرسل؛ لأن دعوة الرسل واحدة وهي دعوة التوحيد.

*** فما هي الآثار الإيمانية والسعادة الحقيقية في الإيمان بالرسل.**

١ ـ الإيمان بالرسل اتباع لأمر الله عز وجل، واتباع أوامر الله من أعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وكذا اعتقاد نزاهتهم وفضلهم وارتفاع درجتهم، قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأشار عز وجل بقوله ﴿ ۞ تِلْكَ ﴾ إلى ارتفاع درجتهم، وعلو مرتبتهم، فالإيمان بهم وتعظيمهم سبب للسعادة في الدنيا والآخرة.

٢ ـ لاشك في أن الرسل هم قادة البشرية إلى السعادة الأبدية، وقد حلاهم الله عز وجل بالفضائل، وخلاهم من القصور والرزائل، وأمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم فقال عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ **[الأنعام: ٩٠]، وقال:** ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولاشك في أن المسلم عندما يرى أمامه الأمثلة الحية للنزاهة والطهر

والعفاف سوف يجتهد في التشبه بهم، وسلوك طريقهم فيكون ذلك من أسباب سعادته في الدنيا والآخرة، وإنما يعزو العلماء شقاء الغرب الكافر إلى افتقاد القدوة، أو الاقتداء بالملاحدة والوجوديين والفلاسفة الذين ضلوا كثيرًا وأضلوا عن سواء السبيل، تطفح كلماتهم باليأس والاستهتار والنزعة العدوانية وضياع الهدف، فهم من أضل الناس وأشقاهم، فكيف يكون في أمثال هؤلاء قدوة.

فلا شك في أن الاهتداء بالرسل الكرام من أعظم أسباب السعادة، وقد ضرب الأنبياء الكرام أروع الأمثلة في الصبر كأيوب عليه السلام، والعفلة كيوسف عليه السلام، وتعظيم أمر الله عز وجل والتضحية في سبيله كإبراهيم عليه السلام، والأخلاق الكريمة كالصدق والأمانة والحياء والكرم والشجاعة وغير ذلك كخاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الأولين والآخرين ﷺ وهكذا الأنبياء الكرام أسوة في الخير.

٣ ـ **يقول ابن القيم** رحمه الله:

إنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلى على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلاَّ على أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيُّ ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت

إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسول كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلبٌ حيٌّ، وما لجرح بميتٍ إلام، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن حد الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١].

٤ ـ ومن الآثار الإيمانية للإيمان بالرسل أن يستأنس المسلم بهم في طريق الإيمان والدعوة إلى الرحمن كما يستأنس بإخوانه المؤمنين، فالرسل هم سادات المؤمنين، وأئمة الدعوة إلى الله عز وجل رب العالمين، فطوبى لمن أحبهم، وأحب طريقهم، واستأنس بهم، فالمرء مع من أحب.

فالداعية الصادق يرى أنه على طريق نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الأولين والآخرين، فكيف لا يسعد بصحبتهم ويستأنس بهم وهو في دعوته إلى الله عز وجل.

٥ ـ معرفة سيرة الأنبياء الكرام من أعظم عوامل الثبات على الحق؛ لأن سنة الله عز وجل مع أنبيائه ورسله واحدة، لابد أن تكون العاقبة للمتقين، والنصر لحزب الله الموحدين، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

---

(١) «زاد المعاد»: (١/ ١٥).

(٥) الإيمان باليوم الآخر وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة.

الإيمان باليوم الآخر هـو الركن الخامس من أركان الإيمان، كما أشار إليه حديث جبريل عليه السلام، وهو يشمل الإيمان بما في يوم القيامة من أحداث البعث والنشور والحساب والميزان والصراط، وما قبل القيامة من الموت وسؤال القبر وحياته، وما بعد القيامة من دار القرار الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ . . .﴾ [البقرة: ١٧٧].

واليوم الآخر غيب بالنسبة إلينا، فالغيب يشمل الماضي والمستقبل، وما يغيب عن حواسنا في الحاضر كالجن والملائكة، وأول صفات المتقين في كتاب الله عز وجل الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بأشراط الساعة الصغرى والكبرى لارتباطها بيوم القيامة، ثم أكثرها غيب بالنسبة إلينا.

ولاشك في أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أسباب السعادة في الآخرة، بل لا يسعد العبد بدخول الجنة والنجاة من النار حتى يؤمن باليوم الآخر، **ولكن السؤال الآن هل الإيمان باليوم الآخر من أسباب السعادة في الدنيا كذلك، والجواب بلا ريب نعم، وذلك لأمور:**

١ ـ الإيمان باليوم الآخر تصديق لكلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ، وذلك من أعظم أسباب سعادة العباد في الدنيا والآخرة، كما أن التكذيب أعظم أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة.

٢ ـ الذين يكفرون بالبعث والنشور هم أشقى الناس في الدنيا؛ لأن

الإنسان بطبيعته يحب الخلود ويكره الفناء، فإذا آمن بالبعث والخلود في جنة الله عز وجل فإن هذا يكون من أسباب سعادته، وكذا من يكفر بالبعث والنشور يجزع أشد الجزع من الموت والمرض، ولابد له من ذلك، فيحيا حياة كلها مخاوف وجزع واضطراب ويأس وتهافت على الشهوات، وحرص على الدنيا؛ لأنها أكبر همه ومبلغ علمه.

قال الدكتور عمر سليمان الأشقر ـ حفظه الله ـ:

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة ثم الخلود بعد ذلك ضروري لتقويم مسار الإنسان، فالإنسان مركوز في أعماق نفسه حب الخلود والبقاء، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها، مدعيًا أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. والكفر بالبعث والنشور يحدث شقوة للنفوس البشرية، كما يحدث انحرافًا في سيرة البشر في الحياة.

إن بعض الذين يرفضون فكرة الرجعة إلى الحياة يبدأون بالنوح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة تمضي، وقد يسلمهم هذا إلى العزلة والألم حتى يوافيهم الموت، وإن كانوا كتابًا أو شعراء فإنهم يسجلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم في مقالات أو كتب أو أشعار تجسم شقوتهم وحيرتهم وألمهم، لتكون سلوى لمن كان على مثل ما كانوا عليه، ولكنها في الحقيقة داء يضاف إلى الداء، فيزيد المريض مرضًا ولا يجلب له الشفاء، وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور يسارعون إلى اقتناص الملذات والشهوات كأنهم في صراع مع الزمن يخشون أن تمضي أيامهم ولما يشبعوا من مباهج الحياة(١).

---

(١) «العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ـ اليوم الآخر القيامة الصغرى»: (ص٦).

٣ ـ الإيمان باليوم الآخر يحيي في نفوس المؤمنين معاني الصبر والاحتساب والرضا والعفو والبذل في سبيل الله عز وجل، فالمؤمن يعلم أن الدنيا دار بلاء وليست دارًا للجزاء أو النعيم، فإذا أصيب ببلاء يتعزى بالصبر والاحتساب، ويعلم أن الله عز وجل يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب. فيرضى بثواب الله ويسلم لقدر الله، فهو في خير دائم كما قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»(١). وهذا مشاهد بالعيان فضلاً عن الدليل والبرهان، فأهل الدنيا وعباد الشهوات إذا أصيبوا ببلاء كمرض أو سجن أو فقر تراهم في غاية الجزع والهلع لضعف الإيمان بالآخرة، وصعوبة الصبر والاحتساب عليهم، فكيف بالكافر بها.

وكذا معاني العفو عن الظالم وقبول الأعذار والبذل والإنفاق والتضحية كلما ازداد الإيمان بالآخرة ازدادت هذه العبادات وضوحًا، ولذا كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قادة وأئمة يقتدى بهم في البذل والإنفاق والتضحية والعفو، فهذه صفات المحسنين المتقين المؤمنين باليوم الآخر.

٤ ـ ومن ثمرات اليقين بالآخرة كذلك الزهد في الدنيا وعدم تعلق القلب بها، وإنما ينشأ الزهد للعلم بأن الآخرة خيرٌ وأبقى من الدنيا، فالزهد هو الرغبة عن الشيء لاستحقاره واستقلاله والرغبة فيما هو خير منه، فكلما ازداد اليقين بالتفاوت بين الدنيا والآخرة، وأن الدنيا كقطعة

---

(١) رواه مسلم: (رقم٢٩٩٩) الزهد.

الثلج رخيصة الثمن سريعة الذوبان، والآخرة كالجوهرة غالية الثمن باقية تشتد الرغبة في الآخرة.

والزهد في الدنيا يجعل العبد أعلى من شهواتها، فلا يفرح بها إذا أقبلت، ولا يحزن عليها إذا أدبرت، لأن هَمَّهُ الآخرة وليس الدنيا.

قيل لبعض السلف: كيف يكون الغني زاهدًا؟ قال: إذا كان لا يفرح بزيادة ماله ولا يحزن من نقصه فهو زاهد.

والزهد في الدنيا يجعل الآخرة أكبر همه وقد قال النبي ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[1].

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر يجعل المستقبل مضيئًا أمام المسلم، فهو يأمل في دخول جنة الله عز وجل والسعادة برؤيته، والحصول على رضاه، وكذا صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويطمع في الخلود في هذا النعيم الأبدي، بخلاف الكافر بالآخرة فنهايته الموت ومواراة التراب، ومعاناة الدود كما هو ظاهر بالنسبة إليه؛ لأنه لا يؤمن بسؤال القبر وعذابه، فعلى كل حال المؤمن واسع الصدر، واسع القبر، المستقبل أمامه فيه اتساع وسرور، والكافر بالآخرة يعاني الضيق في كل شيء، ضيق الصدر وضيق الأحوال في الدنيا كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ وضيق القبور ولله عاقبة الأمور.

---

(١) رواه الترمذي: (رقم٢٥٨٣ ـ تحفة) صفة القيامة، وسكت عنه. وقال الألباني: وهو إسناد ضعيف، لكنه حسن في المتابعات، وله شاهد عند ابن ماجه وابن حبان، وهو في «الصحيحة»: (رقم٩٤٩).

قال الشيخ الغزالي خليل عيد:

الذي كفر بالله والدار الآخرة ونسي أن وراء هذه الدنيا حياة دائمة، وأن بعد هذه الأعمال جزاءًا عادلاً وانساق وراء شياطين الإنس والجن ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] فاستباح هتك الحرمات، واحتكم إلى الأهواء والطواغيت، وانطلق في دروب الشهوات والمنكرات، وعاش باغيًا طاغيًا لا يعرف للضعيف حقًّا ولا مرحمة، وذليلاً خائفًا لا يعرف لنفسه عزًّا ولا كرامة، يخنع ويركع أمام الطاغوت العاتي بقلبه أو بجبهته، ويستعلي على الضعيف المستكين ببغيه وسلطانه وجاهه، إن هذا المجتمع أشبه بغابة الوحوش أو حظيرة الحيوان إنه أحط منها ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء أضرى من الحيوانات الكاسرة، وأشرس من الكلاب المسعورة يلغون في الدماء، ويخوضون في الخبائث والأقذار، ويعتقدون أن هذه هي متعتهم التي إن فاتتهم فلن تستعاض؛ لأنهم زعموا أن لن يبعثوا، وأن ليس بعد هذه الحياة من حياة ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1] [الأنعام: ٢٩].

---

(١) «مجلة البحوث الإسلامية»: (٨/ ٢٤٧)، بحث: (ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر) للشيخ الغزالي خليل عيد.

(٦) الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة[١]

من أصول الإيمان الستة الواجب على العبد الإيمان بها: القضاء والقدر، ويتضمن الإيمان بالقضاء والقدر الإيمان بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله عز وجل السابق:

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أضله الله عالمًا به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل الضلال وليس أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فسبق علم الله عز وجل خلق الأشياء، فعلم ما العباد عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم ما يصيرون إليه قبل أن يوجدهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار.

الأمر الثاني: الإيمان بأن الله تعالى كتب مقادير الخلائق:

وتتضمن الكتابة خمسة مقادير:

الأول: اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

---

(١) هذا الفصل بتصرف واختصار من مقال للمصنف نشر بمجلة صوت الدعوة التابعة للدعوة السلفية بالاسكندرية، العدد السابع ـ شوال/ ذي القعدة ١٤١٣هـ، ص٤ ـ ٨، بعنوان: «عقيدة القضاء والقدر وأثرها في سلوك المسلم».

الثاني: تقدير شقاوة العباد وسعادتهم وأخذ الميثاق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الثالث: تقدير أرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم وهم في بطون أمهاتهم كما نص عليه حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»[1].

الرابع: التقدير الحولي في ليلة القدر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣ ـ ٥].

قال الحسن البصري: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان، وإنها ليلة القدر، يفرق فيها كل أمرٍ حكيم، فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها.

الخامس: التقدير اليومي، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

عن عبيد بن عمير: من شأنه أن يجيب داعيًا، أو يعطي سائلاً، أو يفك عانيًا، أو يشفي سقيمًا، وهو سوق المقادير إلى مواقيتها.

---

(١) رواه البخاري: (١١/ ٤٧٧) القدر، ومسلم: (١٦/ ١٩٠ ـ ١٩٢) القدر، واللفظ له، والترمذي: (٨/ ٣٠١ ـ ٣٠٢) القدر.

الأمر الثالث من الأمور الواجبة اعتقادها حتى نكون من المؤمنين بالقدر هو الإيمان بمشئة الله عز وجل النافذة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وأهل السنة يثبتون مشيئة للمخلوق خلافًا للجبرية، وهذه المشيئة تابعة لمشيئة الرب سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٩].

الأمر الرابع، مما يجب اعتقاده في عقيدة القضاء والقدر: الإيمان بأن الله عز وجل خالق أعمال العباد وقدراتهم وإرادتهم:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

فالله عز وجل هو المضحك المبكي، خالق الضحك والبكاء، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالقدر ولا يحتجون به إلا في المصائب.

والإيمان بالقدر لا يوجب الاتكال وترك العمل، فالذي أمرنا بالإيمان بالقدر هو الذي أمرنا بالأخذ بالأسباب. قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

---

(١) رواه مسلم: (١٦/ ٢١٥) القدر، وابن ماجه: (رقم٦٤) المقدمة.

فما هو الأثر الإيماني لعقيدة القضاء والقدر، وكيف تسعد بها القلوب في الدنيا والآخرة:

١ ـ الإيمان بالقضاء والقدر من أصول الإيمان الستة الواجبة على كل مسلم، ولا يسعد العبد حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، فلا يطمئن القلب ولا يسكن ولا يسعد إلا بذلك. قال ابنٌ لعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. قال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره[1].

فمعرفة عقيدة القضاء والقدر متعة روحية تسعد بها النفوس.

٢ ـ ومن أثر الإيمان بالقضاء والقدر ثقة العبد بربه عز وجل وتوكله عليه لأنه يعلم أن الأمر كله لله عز وجل، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله عز وجل إن قدر للعبد شيئًا لابد أن يصل إليه، وهو الذي بيّنه النبي ﷺ في حديث ابن عباس المشهور: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أحمد: (١/٢٩٣)، والترمذي: (٩/٣١٩ ـ ٣٢٠ ـ عارضة) صفة القيامة. وقال ابن رجب: روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة، وطريق حنش التي رواها الترمذي عن ابن عباس حسنة جيدة. «جامع العلوم»: (ص١٧٤)، وقال الألباني: حديث صحيح، وإسناده واه جدًا، وإنما حكمت عليه بالصحة للطرق الآتية ثم ساقها. «ظلال الجنة»: (ص٣١٥ ـ ٣١٦).

٣ ـ ومن ذلك أنه يجعل العبد يعفو عمن ظلمه أو قصر في حقه لأنه يعتقد أن ذلك بقدر الله، وإنما أتاه هذا القدر على يد من ظلمه ثم لعله يفكر في نفسه حتى يعلم من أين أتى وأن الله عز وجل لم يسلط عليه من ظلمه إلا بذنوبه فيعود على نفسه باللوم.

٤ ـ ومن ذلك استقبال المقدور بنفس راضية فلا يقلق لفوات محبوب ولا يجزع لحصول مكروه كما قال النبي ﷺ: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[1].

وقدر الله عز وجل كله حكمة، فالشر ليس إليه، أي: لم يخلق شيئًا هو شر محض، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال بعض السلف: لا تكرهوا البلايا الواقعة والنقمات الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمرٍ تؤثره فيه عطبك.

وقال آخر: عواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فرب محبوب في مكروه، ورب مكروه في محبوب.

٥ ـ ومن ذلك رؤية المحسن مِنَّة الله عز وجل عليه في أنه قدر له فعل الحسنات وأعانه عليها ووفقه إليها، وكتبه في عداد أهلها، وقد أخبر الله عز وجل أن أهل الجنة يلهمون أن يقولوا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(١) السابق.

فالإيمان بالقدر يجعل العبد يحسُّ بأن الله عز وجل هو صاحب المنة والفضل في هدايته فلا يصيبه عجب أو كبر أو مَنٌّ بعمله على الله عز وجل أو على عباد الله وإذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده.

٦ ـ ومن ذلك أن العبد لا يلتمس الرزق بمعصية الله عز وجل، ولا يذل نفسه للمخلوقين طلبًا للرزق؛ لأنه لا يأتيه إلا ما قدره اللهُ عز وجل له، كما روي من قوله ﷺ: «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإنَّ الأمور تجري بالمقادير»[1]، فيسعى العبد للمعاش بعزة واطمئنان، ويعلم أن ما عند الله عز وجل لا ينال إلا بطاعته، وأن المعاصي ليست من أسباب الرزق، بل هي من أسباب الحرمان، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ومن أسباب الرزق تقوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

٧ ـ ومن ذلك أن تهون على العبد المصائب لأنه يعلم أنها بقدر الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. قال بعض السلف: هي المصيبة تصيب العبد فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

٨ ـ ومن ذلك مدافعة القدر بالقدر، قال عبد القادر الجيلاني: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق.

---

(١) والحديث معناه صحيح إلا أن إسناده ضعيف كما أشار إلى ذلك بركة الزمان وحسنة الأيام الألباني ـ حفظه الله وشفاه ـ وإنما أبقيته ولم أحذفه كعادتي في سائر كتبي تنبيهًا على ضعفه، وصحة معناه انظر: «الضعيفة» للألباني: (رقم١٣٩٠).

فمدافعة القدر بالقدر، كمدافعة قدر المرض بالرقى بالتعوذات وسائر أنواع العلاجات، فلو استسلم العبد للمرض حتى يهلكه بحجة أنه من قدر الله لكان مخالفًا لأمر الشارع مضيعًا للواجب عليه، ومن رد القدر بالقدر الدعاء بحصول المحبوب ودفع المكروه، وكذلك مدافعة قدر الجوع بالأكل، والعطش بالشرب، وقدر البرد بالملابس، قيل: يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله»[1].

ولما أشرف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على مشارف الشام، وعلم بنزول الطاعون وَهَمَّ بالرجوع قال له أبو عبيدة ابن الجراح ـ رضي الله عنه ـ: أفرار من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال ـ رضي الله عنه ـ: لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم، نفر من قدر الله ونقع في قدر الله. ثم قال عمر ـ رضي الله عنه ـ ما معناه: لو كان عندك غنم أو إبل وأمامك أرض مجدبة وأخرى مخصبة فإذا نزلت بالمجدبة أو المخصبة أو تحولت من المجدبة إلى المخصبة فكل ذلك بقدر الله.

٩ ـ ومن ذلك أن العبد كلما وصل إليه خير فإنه يعلم أنه من عند الله عز وجل، وأن الله تعالى هو الذي تفضل به عليه وأكرمه به، فيزداد حُبًّا لله عز وجل، وذُلاًّ له؛ لأن الله عز وجل هو الذي قدره له، وإن كان وصل إليه بواسطة خلقه، ولا يمنع ذلك من شكر المخلوقين الذين استعملهم عز وجل في إيصال هذا الخير.

---

(١) رواه الترمذي: (رقم٢٠٦٥) الطب، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال في تحقيق «جامع الأصول»: وهو كما قال.

١٠- ومن ذلك الأخذ بالأسباب وعدم الثقة بها؛ لأن الأسباب قد تتوفر كلها وتتخلف مشيئة الله عز وجل فلا يحصل المقصود.

قال بعض العلماء: عدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد. ولا منافاة بين الأخذ بالأسباب، والتوكل على الواحد الوهاب؛ لأن الأخذ بالأسباب عمل للجوارح، والتوكل عملٌ للقلب، فالعبد يأخذ بالأسباب بجوارحه، ويعتمد بقلبه على الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فهذا أمر بالأخذ بالأسباب، وقد أخبر الله عز وجل أن النَّصر من عند الله فقال عز وجل: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

وهذا يستدعي التوكل على الله عز وجل.

وعاتب الله عز وجل الصحابة يوم حنين حين ظن بعضهم أن النصر يأتي من كثرة العدد، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال بعضهم: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له.

فنسأل الله تعالى أن يمتعنا بالإيمان، وأن يتوفانا مسلمين غير خزايا ولا مفرطين والحمد لله رب العالمين.

اتباع سنة النبي ﷺ وأثره في الوصول إلى السعادة

الأمر الثاني من الأمور التي عليها مدار سعادة العباد في الدنيا والآخرة اتباع سنة النبي ﷺ، والسنة في اللغة هي: الطريق، وفي الشرع: الطريق المحمودة، أي: التي سلكها رسول الله ﷺ، فالسنة هي المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، وهي أقوال وأعمال وعقائد، والسنة هي: معتقد السلف ـ رضي الله عنهم ـ وطريقتهم في فهم الكتاب والسنة، وأهل السنة هم الذين يتحرون طريقة رسول الله ﷺ ويلتزمونها، ولذا لما سُئل ابن المبارك عن الفرقة الناجية ـ أهل السنة ـ فقال: أبو بكر وعمر، فقيل: قد مات أبو بكر وعمر، فقال: فلان وفلان. فقيل: قد مات فلان وفلان. فقال: أبو حمزة السُّكَّري جماعة.

فالمقصود حتى يكون المسلم من أهل السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة لابد له من سلوك الطريق المحمودة، وهي طريق رسول الله ﷺ، فقد وصف النبي ﷺ الخوارج فقال: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم، ثم قال: يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة»[1].

فقد يأتي العبد ربه يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ويجعلها الله هباءً منثورًا كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤]، فلابد من إخلاص عمله لله عز وجل، واتباعه لسنة النبي ﷺ، حتى ينتفع بأعماله الصالحة في الدنيا والآخرة.

وقد دلت الأدلة المتواترة من الكتاب والسنة الصحيحة على وجوب اتباع سنة النبي ﷺ، وكل طريق إلى الجنة مقطوعة على صاحبها، إلا من سلك خلف رسول الله ﷺ، فقد أوجب الله عز وجل علينا طاعته وعبادته والإخلاص له، وألزمنا بطريقة رسول الله ﷺ وسنته.

* **فمن الآيات الدالة على اتباع السنة:**

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

* **الأحاديث النبوية في وجوب اتباع سنة رسول الله ﷺ:**

- من ذلك قوله ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[١].

- وعن العرباض بن سارية عنه ﷺ قال: «. . . فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[٢].

- وعن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومًا فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»[٣].

---

(١) رواه مسلم: (٦/ ١٥٣) الجمعة.

(٢) رواه أحمد: (٤/١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود: (١٢/٣٥٩، ٣٦٠ - عون) السنة، والترمذي: (١٠/ ١٤٤ - عارضة) العلم، وابن ماجه: (رقم٤٣) المقدمة، والدارمي: (١/ ٤٤، ٤٥) اتباع السنة، والبغوي في «شرح السنة»: (١/ ٢٠٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري: (١٣/ ٢٦٤) الاعتصام، ومسلم: (١٥/ ٧٠) الفضائل.

ـ وعن المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكة يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا وإن من حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله»[١].

ـ وعن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد تركتم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك»[٢].

ـ وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل عمل شرة، ولكل شرةٍ فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»[٣].

ـ وعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أتى النَّبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض الكتب قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية»[٤].

ـ وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «فمن رغب عن سنتي فليس منِّي»[٥].

---

(١) رواه أبو داود: (رقم٤٥٨٠ ـ عون) السنة، وابن ماجه: (رقم١٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «كتاب السنة»: (١/ ٢٧)، وقال الألباني: حديث صحيح رجاله ثقات على ضعفٍ في أبي صالح، ولكن له متابع قوي.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «كتاب السنة»: (١/ ٢٨)، وأحمد: (٢/ ١٨٨، ٢١٠)، وابن حبان «الإحسان»: (١/ ١٨٧، رقم١١)، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «كتاب السنة»: (٢٧١)، وقال الألباني: حديث حسن، إسناده ثقات غير مجالد، وهو ابن سعيد، فإنه ضعيف، لكن الحديث حسن له طرق.

(٥) جزء من حديث رواه البخاري: (٩/ ٨٩، ٩٠) النكاح، ومسلم: (٩/ ١٧٦) النكاح.

- وعن عائشة - رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[1].

والردُّ بمعنى المردود، أي: فهو باطل لا يعتد به.

*** آثار عن السلف الصالحين في وجوب اتباع سنة سيد الأولين والآخرين:**

- عن الحسن البصري قال: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وكتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر فكتب:

(أما بعد أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها، فارض لنفسك ما قد رضيه الناس لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذٍ كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إن ما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه

---

(١) رواه البخاري: (٥/ ٣٠١) الصلح، ومسلم: (١٢/ ١٦) الأقضية.

ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محصر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[(١)].

ـ وقال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة؛ لأن السنة كما قال مالك: مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك.

ـ وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غرباء.

ـ وعن ابن شوذب قال: إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يؤاخي صاحب سنة يحمله عليها.

ـ وعن المعتمر بن سليمان قال: دخلت على أبي وأنا منكسر فقال لي: مالك؟ قلت: مات صديق لي، فقال: مات على السنة؟ قلت: نعم، قال: تحزن عليه.

ـ وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من كام مُسْتَنًّا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم.

---

(١) رواه أبو داود: (رقم٤٥٨٨ ـ عون)، وقال الألباني: صحيح مقطوع. وقال شمس الحق أبادي: (فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة)، أي: من الضلال والمهلكات وعذاب الله تعالى ونقمته.

وقوله: «وقد قصر قوم دونهم»، أي: قَصَّرَ دون السلف الصالحين قصرًا أزيد من قصرهم «فجفوا»، أي: لم يلزموا مكانهم الواجب قيامهم فيه. «وطمح عنهم أقوام فغلوا»، أي: ارتفع عن السلف أقوام، أي: شددوا حتى جاوزوا فيه الحَدَّ، فهؤلاء قد أفرطوا وأسرفوا في الكشف، كما أن أولئك قد فرطوا وفتروا فيه. «عون المعبود»: (١٢/ ٣٧٠).

- وقال شريح: إن السنة قد سبقت قياسكم فاتبع ولا تبتدع فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر.

- وقال أُبي بن كعب: إن اقتصادًا في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة.

- وقال عبد الله بن المبارك: واعلم أخي أن الموت كرامة لكل مؤمن لقي الله على السنة، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا، وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حَلَّ بهذه الأمة من ذهاب العلماء وأهل السنة وظهور البدع.

- وقال سفيان ليوسف بن أسباط: أي يوسف، إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، فقد قَلَّ أهل السنة والجماعة.

- وعن سفيان قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعملٌ إلا بنية، ولا يستقيم قول وعملٌ ونيةٌ إلا بموافقة السنة.

- وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

- وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ:

وخير أمور الدين ما كان سنةً وَشَرُّ الأمورِ الْمُحْدَثَاتُ البَدَائِعُ

فهذه جملة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية تبين خطر السنة، ووجوب اتباعها، والتحذير من مخالفتها، فهل ترى بعد ذلك أن العبد يفلح إذا خالفها، أو يجد سعادة في الدنيا والآخرة في غير طريقها، أما في الآخرة فلا بلا مرية، لقول النبي ﷺ: «وتفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين ملَّةٍ كلهم في النَّار إلا واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: هم الجماعة - أي: أهل السنة والجماعة»، وفي رواية: «ما أنا عليه

وأصحابي»[١]. وهذه الرواية مفسرة للأولى، فالجماعة المراد بها جماعة الصحابة ومن كان على شاكلتهم وهديهم.

وكذا قوله ﷺ: «أنا فرطهم على الحوض ليزادن رجالٌ عن حوضي كما يزاد البعير الضال أناديهم: ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: سحقًا سحقًا»[٢].

فيشترط لسعادة الآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، اتباع سنة النبي ﷺ فهل يشترط ذلك كذلك لسعادة الدنيا؟

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحًا، حتى إن القلب إذا باشر روح السنة ليرقص فرحًا أحزن ما يكون الناس، فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم، إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السنة هم المبيضة وجوههم إذا اسودت وجوه أهل البدع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والتفرق.

---

(١) رواه الترمذي: (رقم٢٦٤١) الإيمان، والدارمي: (٢/ ٢٤١)، وأحمد: (٤/ ١٠٢)، والحاكم: (١/ ١٢٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (رقم٢٠٤).

(٢) رواه مالك في «الموطأ»: (١/ ٢٨ ـ ٢٩) الطهارة، ومسلم: (٣/ ١٣٩) الطهارة، والبغوي في «شرح السنة»: (١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) الطهارة.

وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداه وفوزه، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه.

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبر تعالى أنه جعل أمره روحًا ونورًا وهدى، ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسى من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة(١).

وقال في «زاد المعاد»: وكان رسول الله ﷺ أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين، مع ما خُصَّ به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعة له أكملهم انشراحًا ولذة وقرة عين.

وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه والله المستعان(٢).

• • •

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»: (ص٣ ـ ٥) باختصار، ط. دار الفكر.

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم: (١/ ٣١٩)، ونقله صاحب «الهداية لأسباب السعادة» عبد الله بن جار الله الجار الله، ط. إحياء التراث: (ص٤٠).

تعهد العبد نفسه بالطاعات وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخرة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فهذا خبر أصدق الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولابد لكل من عمل صالحًا أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأسًا، وعَرَّضَ نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فُزْتُ وربِّ الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتى يلقى قُوتَهُ من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحًا مسرورًا. ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من

نعمة لجالدونا عليها بالسيوف. ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا، وطيب الحياة، والنعيم العاجل، وهو أمر يشهد به الحس والوجد، وأما سعادة الآخرة فغيب يعلم بالإيمان[1].

فكلما اجتهد المؤمن في الطاعات والعبادات تتفجر ينابيع الخير في قلبه، وتثمر شجرة الإيمان في جوانبه أطيب الثمرات، والنفس تواقة ذَوَّاقة، فكلما وجد العبد ثمرة الطاعة ازداد اجتهادًا في عبادة ربه عز وجل، فيزداد معرفة ومحبة للهِ عز وجل، ويزداد صدره انشراحًا حتى يصل إلى موجب سعادة الدنيا والآخرة، ويصير من أولياء الله عز وجل الذين تولوا ربهم بالمحبة والطاعة والنصرة لدينه وكتابه ورسوله، فتولاهم اللهُ عزَّ وجل ورباهم على عينه واصطنعهم لنفسه، قال تعالى في الحديث القدسي: «وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[2].

---

(١) «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٢) سبق تخريجه.

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر الله تعالى ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار، وسبب ذلك واضح، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان، يتلقون المحابَّ والمسارَّ بقبول لها وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع فإذا استعملوها على هذا الوجه أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها، ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه بدٌّ، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة، تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه كما عَبرَّ النبي ﷺ عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن»[1] فأخبر ﷺ أن المؤمن يتضاعف غنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

ولهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر فيتفاوتان تفاوتًا عظيمًا في تلقيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح، هذا

---

(١) سبق تخريجه.

الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر، وما يتبعهما فيحدث له السرور والابتهاج وزوال الهم والغم والقلق وضيق الصدر وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار، والآخر يتلقى المحاب بأشر وبطر وطغيان فتنحرف أخلاقه، ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع وهلع، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب بل مشتته من جهات عديدة، مشتت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالبًا، ومن جهة أن النفوس لا تقف على حدٍّ، بل لا تزال متشوقة لأمور أخرى قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضًا قلق من الجهات المذكورة[١].

فبالجملة كل عمل صالح مع الإيمان له حلاوة وسعادة في قلوب العباد، وكذا ترك المعاصي والتنزه عن الشبهات والشهوات، كلما سلم منها قلب العبد فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، ونحن نخص بشيء من تفصيل الذكر خمسة أعمال صالحة تشير إلى بقيتها، والله الموفق للطاعات والهادي لأعلى الدرجات، وهذه الأعمال الصالحة هي:

١ - طلب العلم النافع.

٢ - الصَّلاة.

٣ - الزَّكاة.

٤ - الصَّوم.

٥ - الحج.

---

(١) «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» ضمن «المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي»: (٢/ ٤٨٣، ٤٨٤).

(١) فمن أسباب السعادة طلب العلم النافع:

قال ابن الجوزي:

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم، فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذٍ فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات.

فكلهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قُوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكِبَرِ في حسرات.

فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال: واأسفًا على ما جنيت.

وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفًا على فوات ما كان يلتذ به.

فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جني ما غرس، ويلتذ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئًا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم.

هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به إدراك المطلوب.

وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما ينل منها، كما قال الشاعر:

أَهْتَزُّ عند تمني وَصْلَها طَرَبًا   وَرُبَّ أُمْنِيَةٍ أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ

ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبية والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه.

ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك.

فقلت له: أيها الجاهل تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف.

وما طالت طريق أدت إلى صديق.

جَـزى اللهُ الْمَسِيْـرَ إلَيْـهِ خَيرًا وَإنْ تَـرَكَ المَطَـايـا كَـالْمَـزَادِ

ولقد كنت في حلاوة طلب العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء.

فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم.

فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحواله وآدابه وأحوال أصحابه وتابعيهم.

وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما يدرى بالعلم، حتى أنني أذكر في زمان الصبوة ووقت الغلمة والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله عز وجل.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر لقد كنت أخاف على نفسي من العُجب.

غير أنه عز وجل صانني وعلمني، وأطلعني من أسرار العلم على معرفته وإيثار الخلوة به، حتى أنه لو حضر معي معروف وبشر لرأيتهما رحمة[1].

وقال أيضًا: والله ما أعرف من عاش رفيع القدر، بالغًا من اللذات ما لم

---

(١) «صيد الخاطر»: (ص٢٣٥ ـ ٢٣٦) باختصار وتصرف.

يبلـغ غيره إلا العلمـاء المخلصين كـالحسـن وسفيـان، والعُبَّـاد المحققين كمعروف، فإن لذة العلم تزيد على كل لذة[1].

وقال أيضًا: فليس في الدنيا أطيب عيشًا من منفرد عن العالم بالعلم، فهو أنيسُهُ وجليسه، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة لا عن تكلف ولا تضييع دين، وارتدى بالعزِّ عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف بالقناعة باليسير إذا لم يقدر على الكثير، بهذا الاستعفاف يسلم دينه ودنياه.

واشتغاله بالعلم يدله على الفضائل، ويفرجه في البساتين، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة.

ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ملخصه:

إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة: سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره، تزول باسترداد العارية، وهي سعادة المال والحياة فبينما المرء بها سعيدًا ملحوظًا بالعناية مرموقًا بالأبصار، إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالعزواجي، فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته، فإذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبادان قرية.

السعادة الثانية: سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه، فهذه ألصق به من

---

(١) السابق: (ص٢٨٧).

(٢) السابق: (ص٣٧٣).

الأولى، ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته، فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه كما قيل:

يا خادمَ الجسمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ فَأَنتَ بالرُّوح لا بالجسمِ إنسانُ

السعادة الثالثة: هي السعادة الحقيقية، وهي سعادة نفسانية روحية قلبية، وهي سعادة العلم النافع وثمرته، فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دوره الثلاثة، أعني: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال، أما الأولى فإنها تصحبه في البقعة التي فيها ماله وجاهه

والثانية عرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق، والرد على الضعف، فلا سعادة في الحقيقة إلا في هذه الثالثة التي كلما طال الأمد ازدادت قوةً وعلوًّا، وإذا عدم المال والجاه فهي مال العبد وجاهه، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن، إذا انقطعت السعادتان الأوليتان، وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها، فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه، والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وإنما رغبَ أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا على جسر من التعب فإنها لا تحصل إلا بالجدِّ المحضِ، بخلاف الأولين فإنها حظ قد يحوزه غير طالبه، وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث أو هبة أو غير ذلك.

وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلاَّ بذل الوسع، وصدق الطلب وصحة النية.

فقل لِمُرَجِّي مَعَالي الأمورِ بِغَيْرِ اجْتِهادٍ رَجَوْتَ المُحَالا

وقال آخر:

لَوْلاَ المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُم   الجُودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَّالُ[(١)]

وبعد، فقد ظهر بهذه النقول الطيبة الزكية أن السعادة الحقيقية في العلم النافع والعمل بمتضاه، كذا العز الدائم، والرفعة في الدنيا والآخرة في طلب العلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

أرسل وهب إلى مكحول يقول له: أما بعد، لقد بلغت بظاهر علمك عند الناس منزلة وزلفى، فابتغ بباطن علمك عند الله منزلة وشرفًا.

فأهل العلم هم أهل الشرف الحقيقي والعز الدائم والمنزلة العالية في الدنيا والآخرة، وهذه قصة حكيت عن شيخ الإسلام وخاتمة الحفاظ ابن حجر العسقلاني يظهر بها شرف العلم في الدنيا والآخرة، يروى أن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ خرج يومًا بأبهته ـ وكان رئيس القضاة بمصر ـ فإذا برجل يهودي في حالة رَثَّةٍ، فقال اليهودي: قف. فوقف ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال له: كيف تفسر قول رسولكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(٢)]، وها أنت تراني في حالة رثة وأنا كافر، وأنت في نعيم وأبهة مع أنك مؤمن؟ فقال الحافظ: أنت مع تعاستك وبؤسك تعد في الجنة لما ينتظرك في الآخرة من

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» لابن القيم: (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، ط. مكتبة الفاروق الحديثة.

(٢) رواه مسلم: (رقم٢٩٥٦) الزهد، والترمذي: (رقم٢٣٢٤) الزهد.

وقال النووي: معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعده الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد. «شرح النووي على مسلم»: (١٨/ ١٢٤، ١٢٥).

عذاب أليم ـ إن مت كافرًا. وأنا مع هذه الأبهة ـ إن أدخلني اللهُ الجنة ـ فهذا النعيم الدنيوي يُعَدُّ سجنًا بالمقارنة مع النعيم الذي ينتظروني في الجنات. فقال: أكذلك؟ قال: نعم. فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[1].

قال عائض القرني:

إن مما يشرح الصدر: كثرة المعرفة، وغزارة المادة العلمية، واتساع الثقافة، وعمق الفكرة، وبُعْد النظرة، وأصالة الفهم، والغوص على الدليل، ومعرفة سر المسألة، وإدراك مقاصد الأمور، واكتشاف حقائق الأشياء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]، إن العَالِمَ رحب الصدر، واسع البال، مطمئن النفس، منشرح الصدر[2].

وقال الدكتور أنس أحمد كرزون: العلم منشط للنفس، وممتع لها، وهذه المتعة تنسي طالب العلم ما يلحقه من متاعب، وتخفف عنه ما يبذله من عناء؛ لأنه يجد في العلم مرتعًا يأوي إليه ويرتاح عنده، وبذلك تقوى همته في طلب العلم، ولا يشبع منه أبدًا.

وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الذي رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن الرسول ﷺ قال: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال»[3].

---

(١) نقلاً عن «السعادة بين الوهم والحقيقة»: (ص٥٣).

(٢) «لا تحزن»: (ص١٩٧).

(٣) رواه الحاكم: (١/ ٩٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولم أجد له علة، والبيهقي في «الشعب»: (رقم١٠٧٩) ط. زغلول، وصححه الألباني في «الجامع»: (رقم٦٥٠٠)، وكذا تحقيق «المشكاة»: (رقم٢٦٠).

وهذا النهم في طلب العلم هو بلاشك دافع للعمل، ومغذٍّ للنفس، حتى تتزكى وتشفى من أمراضها، وتبتعد عن اللذات المحرمة التي تميل إليها النفس الأمارة.

قال الإمام الماوردي: العلم عوض من كل لذةٍ، ومغنٍ عن كل شهوة . . .

ومن تفرَّدَ بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة، فلا سمير كالعلم، ولا ظهير كالحلم، وما أحسن قول الشاعر:

شَربتُ العِلْمَ كَأْسًا بعد كَأسٍ   فَمَا نَفَدَ الشَّرَابُ وَلاَ رَويتُ

وقد أورد الإمام ابن القيم قصة في هذا المجال عن شيخه الإمام ابن تيمية فقال:

حدثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرضَ. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليس النفس إذا فرحت وسرت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى. فقلت له: فإن نفسي تسر بالعلم، فتقوى به الطبيعة فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا[1].

* * *

(١) «منهج الإسلام في تزكية النفس»: (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

(٢) ومن أسباب السعادة الصلاة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وأما الصلاة فشأنها في تفريغ القلب، وتقويته، وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه، والتنعم بذكره والابتهاج بمناجاته والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاورتهم، وانجذاب قوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة. ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تلائم إلا القلوبَ الصحيحة، وأما القلوب العليلة فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشِّطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة وكاشفة للغُمَّةِ[١].

يقول الدكتور فارس علوان:

. . وهنا تتجلى إحدى نعم الله تبارك وتعالى الخفية على المسلمين، وما أضفى عليهم نتيجة إيمانهم واستسلامهم لخالقهم . . لقد أضفى عليهم راحة بال وهدوءَ نفسٍ، واستقرار فكرٍ، وتوازن أعصاب، وذلك عندما ربطهم تبارك وتعالى بذاته العلية، يتوجهون إليه، يعبدونه ويبجلونه

---

(١) نقلاً عن كتاب «لا تحزن» لعائض القرني: (ص٢١١).

ويعظمونه . . يناجونه وحده، فلا ينصرفون إلى سواه، ويتوكلون عليه فلا يفكرون فيما عداه.

إن هذا الارتباط المبارك بين العبد وربه يبلغ أوجه في الصلاة؛ لأن في الصلاة قربًا وحبًّا ومناجاة، هذا القرب الوادع الجميل، وهذه المناجاة المقدسة المباركة تتكرر في أقل تقدير ٣٤ مرة في اليوم، يقول فيها المسلم «سبحان ربي الأعلى» أكثر من مائة مرة. وقد قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء»(١).

يشعر المسلم وهو خافض هامته لرب العالمين، مطاطىء الرأس لمن خلقه وصَوَّره، مُمَرِّغٌ جبهته وأنفه على الأرض، مع أنهما أعلى ما في جسمه وأكرم ما ظهر من بدنه، مثبتًا بصورة عملية لا تردد فيها ولا رياء أن لا عبودية إلا للهِ، ولا عزة إلا به، ولا مسلك إلا الذي رسمه جل وعلا، وأوضح معالمه رسوله الكريم ﷺ.

يشعر أنه في عالم غير هذا العالم المادي، وفي محيط غير محيط الناس من حوله . . يشعر أنه يحلق في أجواء علوية، لا يصل إليها إلا من صفا قلبه وسمت أخلاقه واستقامت معاملته . . فاندفع بكيانه وشمخ بروحه بعيدًا عن الدنيا ومتاعها الزائف، وعن الهوى ومباهجه البراقة إلى مستوى الصفوة ذات الدرجات العلى، والعباد المقربين، فحري بمثل هذا أن يكسبه الله وهو أكرم الأكرمين قلبًا خاشعًا، ونفسًا مطمئنة، وعقلاً راجحًا، وأمنًا واستقرارًا، لا يحظى بمثله إلا ثلة مختارة من الناس ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢٠٠) الصلاة، وأبو داود: (٣/ ١٢٨) الصلاة، والنسائي: (٢/ ٢٢٦) الصلاة.

﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] للصلاة عند هؤلاء لذة وراحة، ولتبتلهم بالدعاء شغف ومتعة . . فإذا بهم يكتسبون قوة إيمان عظيمة، ورضا بالقدر ثابتًا، وقناعة بقضاء الله راسخة[(١)].

وقال محمد أحمد إسماعيل تحت عنوان: «الصلاة راحة وسعادة وقرة عين»:

في الصلاة واجبات روحية لا يعلم أسرارها إلا الله تعالى، وهي تروي الظمأ الروحي، وتشبع أشواق النفس إلى الدعة والسكينة بما لا تسديه العقاقير والأدوية، وقد خضعت الأجيال البشرية والعقول السليمة لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم لتجارب محدودة وتخمينات مظنونة ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧]، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] الذي قال في كتابه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٧ ـ ٢٨].

والصلاة حافلة بذكر الله تعالى، والعبودية له عز وجل، لذلك فهي تشرح الصدر، وتذهب ضيقة، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] بان لك ذلك، فإن من أدى حق الصلاة وجد في نفسه خفة إذا انصرف منها، وأحسَّ بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطًا وراحة وروحًا حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينيه، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها لا منها.

---

(١) «سلسلة صحتك في عبادتك» ـ وفي الصلاة صحة ووقاية، للدكتور فارس علوان: (ص٢٥٨ ـ ٢٥٩) ط. دار السلام.

فالمحبون يقولون: (نُصَلِّ فنستريح بصلاتنا) كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ لبلال ـ مؤذنه رضي الله عنه ـ: «يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها»[1]. ولذلك كان حنين الرعيل الأول إلى الصلاة، وإيثارهم إياها على كل ما حبب إلى النفس البشرية، ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين، فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ قومًا من جهينة، فقاتلوا قتالاً شديدًا . .» الحديث، وفيه «وقالوا ـ أي: المشركين ـ: إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد»[2] رواه مسلم.

وقال الدكتور أنس أحمد كرزون:

إذا أقبل العبد على صلاته بهمة ورغبة، واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه، فإن تلك الصلاة تُمِدُّهُ بقوة روحية، وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة، ولذلك قال الله تعالى موجهًا عباده إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة ومصائبها: يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه فيجد راحته، ويحس بتأييد الله له ورحمته به.

فعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى»[3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مختصر «الصلاة لماذا»: (ص١٨ ـ ١٩)، توزيع دار العقيدة للتراث.

(٣) رواه أبو داود: (رقم١٣٠٥ ـ عون) الصلاة، وأحمد: (٥/ ٣٨٨)، وقال بعضهم: إنه روي مرسلاً، قاله المنذري، وضعفه في تحقيق «جامع الأصول»: (٩/ ٣٩٥).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1].

وكان الرسول ﷺ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»[2]، أي: أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله.

وهكذا يشعر المؤمن في صلاته بالسكينة والطمأنينة، ويفزع إليها كما يفزع الخائف إلى ركن ركين ومكان أمين.

ولذلك لم تكن الصلوات مقصورة على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة تزيد من صلة العبد بربه، وتقر بها عينه، وتأمن بها نفسه، حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم، والمفتاح لِحَلِّ هومه ومشاكله.

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى بعض أقوال علماء النفس الغربيين في الاعتراف بأهمية الصلاة لبث الطمأنينة في النفس، وعلاجها من أمراضها.

يقول (الكسيس كارليل): إن الصلاة تحدث نشاطًا روحيًا معينًا يمكن أن يؤدي إلى الشفاء السريع لبعض الأمراض.

ويقول (توماس هايسلوب): إن الصلاة أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة في النفوس، وبث الهدوء في الأعصاب[3].

ويقول المفكر الإسلامي سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الْمَعِيْنُ الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع، ثم يضيف إلى الصبر الرضا والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «منهج الإسلام في تزكية النفس»: (٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧) باختصار.

إنه لابد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالله حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الظاهرة والباطنة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان وهي عنيفة، حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئًا، وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئًا وشمس العمر تميل للغروب، حينما يجد الشَّرَّ فاشِيًا والخير ضاويًا، ولا شعاع في الأفق، ولا معلم في الطريق، هنا تبدو قيمة الصلاة.

إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني ومولاه الباقي.

إنها الموعد المختار للالتقاء بالنبع الذي لا يغيض.

إنها مفتاح الكنز الذي يُغني ويُقني ويُفيض.

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير.

إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة.

إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.

إنها زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب.

إنَّ الله سبحانه حينما انتدب محمدًا ﷺ للدور الكبير الشاق الثقيل قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٥]، فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف الشاق، والدور العظيم هو قيام الليل، وترتيل القرآن، إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء، والسلوى، والراحة والاطمئنان.

ومن ثَمَّ يوجه اللهُ المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام إلى الصبر والصلاة[1].

وبعد، فقد ثبت بما نقلنا من آثار وأقوال أن الصَّلاة سبب للطمأنينة والسكينة، وانشراح الصدر، وانفساخ القلب، وزوال الهموم والغموم والأحزان، كما أنها سبب لتكفير الذنوب لذا قال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كُلَّ يومٍ خمسًا ما تقول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئًا، قال: مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا»[2].

فإذا سلم القلب من الذنوب ومحيت عنه آثارها السيئة وجد العبد راحة في قلبه وسعادة في فؤاده، والصلاة كذلك تحفظ المؤمن من الوقوع في الفواحش والذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي نور للقلب وللقبر، ونور للعبد يوم القيامة كما قال ﷺ: «.. الصلاة نورٌ ..» فمن حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة، ولاشك في أن ذلك كله من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، ومهما سلم قلب العبد وامتلأ بحب الربِّ عز وجل فإن الصَّلاة تكون أسعد أحواله، وأطيب أعماله، فلا يسعد بشيءٍ كما يسعد

---

(١) «في ظلال القرآن».

(٢) رواه البخاري: (٢/ ١٥) مواقيت الصلاة، ومسلم: (رقم٦٦٧) المساجد ومواضع الصلاة. قال القرطبي: ظاهر الحديث أن الصلوات الخمس تستقل بتكفير جميع الذنوب وهو مشكل لكن روى مسلم قبله حديث العلاء عن أبي هريرة مرفوعًا: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر» فعلى هذا المقيد يحمل ما أطلق في غيره. «فتح الباري»: (٢/ ١٦).

بالصلاة. كما قال سيد العابدين وإمام العارفين، وحبيب رب العالمين: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1].

وهكذا تواترت أقوال العباد والزهاد أنهم وجدوا في الصلاة سعادتهم ومنتهى راحتهم.

كان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وقال يزيد الرقاشي لحبيب العجمي: ما أعلم شيئًا أقر لعيون العابدين من التهجد في ظلمة الليل، وما أعلم شيئًا من نعيم الجنات وسرورها ألذ عند العابدين ولا أقر لعيونهم من النظر إلى ذي الكبرياء العظيم إذا رفع تلك الحجب، وتجلى لهم الكريم[2].

وقال بعضهم: عالجت قيام الليل سنة وتمتعت به عشرين سنة.

وقال بعضهم: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة.

وقال بعضهم: أنا منذ أربعين سنة ما أزعجني إلا طلوع الفجر.

فالمؤمن في كل أحواله وأعماله الصالحة مثله كمثل أم موسى ترضع ولدها فتطفىءُ بذلك ظمأ نفسها، وشغف قلبها، وتأخذ على ذلك أجرًا.

فكذلك المؤمن يسعد بالطاعة والعبادة في الدنيا، ويسعد بثوابها في الآخرة.

وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «اختيار الأَولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» لابن رجب الحنبلي: (ص٦٩)، ط. مكتبة المؤيد.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

فالحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان.

يقول الأستاذ محمد عبد الله الخطيب:

تمد الصلاة المؤمن بطاقة هائلة من الزاد الروحي فيقوى الضعيف، ويسعد الحزين، ويشفى المريض، وينشط الكسلان، هذه حقائق اعترف بها غير المسلمين في الصلاة عمومًا، فكيف بفريضة الإسلام.

ولهذا نرى من علماء الكون والحياة طبيبًا شهيرًا مثل د. الكسس كاريل - يبين مدى هذه القوة وأثرها في حياة الإنسان فيقول: لعل الصَّلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت بوصفي طبيبًا كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم، إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع ومولد ذاتي للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزاده نشاطهم المحدود، حين يخالطون القوة التي يغنى نشاطها.

ثم يقول: إننا نربط أنفسنا حين نصلي بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبسًا منها نستعين به على معاناة الحياة، بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا، ولن نجد أحدًا ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج(١).

* * *

(١) «الدقائق الغالية» لمحمد عبد الله الخطيب: (ص٢٢ - ٢٣)، ط. دار المنار الحديثة.

(٣) **ومن أسباب السعادة إيتاء الزكاة:**

وإنما سميت الزكاة زكاة لأنها تطهير لنفس الغني من الشح والبخل، وتطهير لنفس الفقير من البغض والحسد لأخيه الغني، وتطهير للمال بأداء حق الله عز وجل فيه، وتطهير للمجتمع من جرائم السرقة والاغتصاب والقتل وغير ذلك، مما يكون نتيجة لعدم تآلف طبقات المجتمع، واستئثار الغني بالمال دون أخيه المحتاج، كما يحدث في البلاد الكافرة، ولذا قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والشرع لم يترك تحديد الأنصبة ومقدار الزكوات لأصناف المال لاجتهاد الغني أو الحاكم، بل حدد الشرع هذه القيم المختلفة، وكذا مصارف الزكاة بما يؤدي هذه الوظيفة الرئيسية للزكاة وهي التطهير والتزكية، وقد أخبر الله عز وجل عن محبة الإنسان للمال فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦]، والعقبة هنا هي الشح وحب المال، وبين النبي ﷺ خطر الشح فقال: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[١].

---

(١) رواه مسلم: (رقم٢٥٧٨) البر والصلة، بزيادة في أوله: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

قال النووي: قال جماعة: الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع الحرص، وقيل: البخل في أفراد الأمور، والشح عام، وقيل: البخل في أفراد الأمور والشح بالمال والمعروف، وقيل: الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده. «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) هامش.

والسؤال كيف يكون إيتاء الزكاة؟ وكذا الصدقات غير الواجبة من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة؟ وجوابه من وجوه:

الأول: أن إيتاء الزكاة استجابة لأمر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فإذا تدرب العبد على مخالفة هوى نفسه وما جبلت عليه النفس من الشح والبخل، وأخرج المقادير التي حددتها الشريعة المطهرة من أصناف المال، فإنه بذلك يسلم قلبه من الشح، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الوجه الثاني: أنه يستجيب لأمر الله عز وجل ويعظم شريعته، وإن كان الأمر شاقًّا على النفس البشرية لتمكن حب المال من القلوب، فهو ينتصر على نفسه وهواه في هذا الميدان فتقوى نفسه على الطاعة والاستجابة لأمر الله عز وجل في سائر الميادين.

ولاشك في أن من أعظم أسباب سعادة العباد في الدنيا والآخرة الاستجابة لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، فذلك سبب الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة الأبدية السرمدية في جنة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والوجه الثالث: أن التدرب على إخراج الزكوات تحرير للعبد من العبودية للمال، وهي سببٌ للشقاء في الدنيا والآخرة كما قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم . .»[1].

(١) تقدم تخريجه.

قال الدكتور يوسف القرضاوي:

الزكاة كما تحقق معنى التطهير للنفس، تحقق معنى التحرير لها، تحريرها من ذل التعلق بالمال والخضوع له، ومن تعاسة العبودية للدنيار والدرهم، فإن الإسلام يحرص على أن يكون المسلم عبدًا لله وحده، متحررًا من الخضوع لأي شيءٍ سواه، سيدًا لكل ما في هذا الكون من عناصر وأشياء.

وأي تعاسة أعظم من أن يجعل الله الإنسان في الأرض خليفة وسيدًا، فإذا هو يُعَبِّدُ نفسه لما هو عليها من مادةٍ ومالٍ.

أي تعاسة أعظم من أن يصبح جمع المال هدف الإنسان، وأكبر همه، ومبلغ علمه، ومحور حياته، وقد خلق لرسالة أكبر وهدفٍ أسمى.

ولا غرو أن جاء النور من مشكاة النبوة يحذر من هذه التعاسة، التي هي من لوازم العبودية لغير الله تعالى: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[1].

ولاشك في أن هذه العبودية للمال ظاهرة في المجتمعات الكافرة، كما أن التعاسة والشقاء في هذه المجتمعات ظاهر كذلك، فالزوج ينفق على نفسه والزوجة تنفق على نفسها، إن كان ثمَّ زواج، بل أكثر الغربيين لا يتزوج حتى لا يكون له زوجة وأولاد ينفق عليهم، فيعيش الواحد منهم وحيدًا فريدًا حتى لا ينفق ماله إلا على شهواته ونزواته، بل حبهم للمال وشدة حرصهم عليه يجعلهم لا يراعون حرمات للأرحام وإن كانت وثيقة القرابة، فإذا قامت الوالدة بزيارة ابنها فإنها تدفع في نهاية الزيارة تكاليف إقامتها عند

---

(١) «فقه الزكاة» للدكتور يوسف القرضاوي: (٢/ ٨٧٢)، والحديث تقدم تخريجه.

ولدها، وقد حكي أن امرأة غربية زارت ولدها، وكانت مُسِنَّةً مريضةً ولم يكن معها مالٌ حتى تدفع قيمة إقامتها فترة الزيارة، فأشفقوا عليها ورضوا منها أن تحضر لهم ما يحتاجون إليه من السوق، وكذا تنظف البيت مقابل تكاليف إقامتها، ولا تعجب فكل أمورهم عجيبة يرثى لها؛ لأنهم حرموا من نور السَّمَاءِ، ومن الاستضاءة بالوحي الصادق إلى الأنبياء، فأهدرت القيم والأخلاق أمام حب المال وعبادته، وانظر إلى عظمة الإسلام وهو يحرم على الولد أن يعطيَ والدته أو والده أو أبناءه أو زوجته من الزكاة الواجبة؛ لأن من الواجب على الولد الغني أن ينفق على والديه الفقراء، فهذا واجب غير واجب الزكاة، فكيف تكون سعادة الولد وهو ينفق على والديه لأنهما كانا سببًا في وجوده، وكيف تكون سعادة الوالدين وهم يرون ثمرة عمرهم وحياتهم وجهدهم وقد بلغا من الكبر عِتِيًّا، وعجزًا عن اكتساب الأموال، والولد يسعى في سد خلتهم وحاجتهم، ويفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، فما أشقى الكفار بكفرهم وبعدهم عن أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، فهم في ظلماتٍ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل اللهُ له نورًا فما له من نور، وقد أدى سوء معاملة الكفار للآباء والأمهات، ولجوء أكثر المسنين إلى دور العجائز لأنهم لا يجدون من ينفق عليهم، إلى خوف الشباب من الزواج حتى لا يؤول به الأمر عند كبره إلى سكنى دار العجائز، فعزف أكثر الشباب عن الزواج، وبذلك انتشرت الإباحية والفجور، وأخبرني أحد الشباب السعودي الذي ابتلي بسكنى أمريكا جنة الكفار، أن صاحب البيت الذي يسكنه يعيش معه في البيت ثلاثة كلاب، وقطتان، ولما سأله عن عدم الزواج أخبره بأنه لم يجد أوفى من الكلب، وصدق في ذلك فقد قال الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٥٥] فلا زوجة يأنس بها ويسكن إليها، ولا أولاد تقر عينه برؤيتهم، ويسعد بحبهم، ومع ذلك يظن كثير من المسلمين أنهم في قمة السعادة، وهم محرومون من أدنى مراتبها، بل مما تسعد به سائر الحيوانات، وهذا من شؤم الكفر برب الأرض والسماوات.

يقول الدكتور أنس كرزون:

الإسلام يحرص كثيرًا في عباداته وأحكامه على تقوية روابط الأخوة، وتعميق صلات المحبة بين المسلمين، حتى يكون المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وعندما تضاف إلى رابطة الأخوة رابطة أخرى هي القرابة والرحم فإن نصوص الكتاب والسنة تؤكد على ضرورة تقوية هذه الرابطة، والتحذير من تقطيع أواصرها أو التهاون في شأنها، ولذلك كانت الصدقة على الأقارب والأرحام الفقراء أولى وأعظم أجرًا ينال بها العبد أجر الصدقة وأجر صلة الأرحام، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «الصَّدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»[1].

وإذا كانت هناك خصومة بين المسلم وأحد أقربائه الفقراء، فلا ينبغي له أن يمتنع عن مساعدته، بل عليه أن يحرص على ذلك أكثر؛ لأن الأجر فيها أعظم، ولعل هذه الصدقة تكون سببًا في ذهاب الخصومة، وصفاء النفوس، وتآلف القلوب.

---

(١) رواه النسائي: (٥/ ٩٢) الزكاة، والترمذي: (رقم٦٥٨) الزكاة، وابن ماجه: (رقم١٨٤٤) الزكاة، وصححه الألباني.

وهذا ما أوضحه النبي ﷺ بقوله: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[1].

الوجه الرابع من أوجه السعادة في إيتاء الزكاة وسائر النفقات، أن فيها إدخالاً للسرور على قلب المؤمن، ومن أفضل الأعمال إدخال السرور على قلب المسلم، سَدُّ خلته وتفريج كربته والجزاء من جنس العمل، فمن نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره اللهُ في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

والقلوب السليمة والفطر المستقيمة يحصل لها من السرور والحبور والسعادة بتنفيس كربات المسلمين وقضاء حوائجهم ما اللهُ عز وجل به عليم.

الوجه الخامس: أن الإنفاق في سبيل اللهِ عز وجل شكرٌ لِنِعْمَةِ الله عز وجل، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والعجيب أن الزكاة إخراج جزء من المال، يزكو المال بذلك، ويعظم نماؤه، ويبارك فيه وتقر به عين مالكه، وقد قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[2]، وقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ

---

(١) رواه أحمد: (٣/ ٤٠٢)، والحاكم: (١/ ٤٠٦) الزكاة، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وصححه الألباني في «الإرواء»: (رقم٨٩٢).

(٢) رواه مسلم: (رقم٢٥٨٨) البر والصلة، والترمذي: (رقم٢٠٢٩) البر والصلة.

(٣) رواه البخاري: (٣/ ٣٥٧) الزكاة، ومسلم: (٧/ ١٣٢ ـ ١٣٣) الزكاة.

ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وهذا مشاهد بالعيان فضلاً عن الدليل والبرهان، فكل من يخرج زكاة ماله وينفق في أوجه الخير والبر يزداد ماله، وتعظم بركته، وهذا عكس الربا، فالمرابي يظن أن ماله يزداد من أجل أخذ الزيادة، وفي الواقع يمحق الله عز وجل بركة هذا المال، كما قال تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فالذي يتعامل بالربا تمحق بركة ماله ويفلس عن قريب ولا ينتفع بهذا المال لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولاشك في أن نماء المال عند الرجل الصالح الذي يستعمله في حفظ ماء وجهه، وصيانته عن ذل الحاجة لغيره، واستعماله في طاعة الله عز وجل من أسباب سعادته فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

يقول الدكتور القرضاوي:

إن الإسلام يريد للناس أن يحيوا حياة طيبة، ينعمون فيها بالعيش الرغد، ويغتنمون بركات السماوات والأرض، ويأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويحسون فيها بالسعادة تغمر جوانحهم، وبالأمن يعمر قلوبهم، والشعور بنعمة الله يملأ عليهم أنفسهم وحياتهم، إنه يجعل تحقيق المطالب المادية عنصرًا هامًا في تحقيق السعادة للإنسان.

يقول الرسول ﷺ: «ثلاث من السعادة: المرأة تراها فتعجبك وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق»[1].

---

(١) رواه الحاكم: (٢/ ١٦٢) النكاح، مطولاً، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد عن خالد بن عبد الله الواسطي إلى رسول الله ﷺ، تفرد به محمد بن بكير عن خالد إن كان حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: قلت: محمد قال أبو حاتم: صدوق يغلط، وقال يعقوب ابن شيبة: ثقة. وهو في «الصحيحة»: (رقم١٠٤٧).

وفي حديث آخر: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»[1].

وهي لفتة نبوية رائعة إلى أثر الحياة الزوجية وأثر المواصلات والمسكن وجيرانه في سعادة الإنسان أو شقائه.

أجل يحبُّ الإسلام للناس أن يسعدوا بالغنى ويكره لهم أن يشقوا بالفقر.

إن الناس إذا توافرت لهم كفايتهم وكفاية من يعولونه استطاعوا أن يطمئنوا في حياتهم ويتجهوا بالعبادة الخاشعة إلى ربهم الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[2].

وقد جعل القرآن الغنى والحياة الطيبة من مثوبة الله العاجلة للمؤمنين الصالحين، كما جعل الفقر وضنك المعيشة من عاجل عقوبته للكفرة والفاسقين.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٦٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) رواه ابن حبان: (رقم٤٠٣٢ ـ الإحسان)، النكاح، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (١٢/ ٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ٣٨٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (رقم٢٨٢).

(٢) «فقه الزكاة»: (٢/ ٨٧٢ ـ ٨٧٤) باختصار.

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويكره الإسلام الفقر والحاجة للناس لأنه يريد أن يعفيهم من ضرورات الحياة المادية ليفرغوا لما هو أعظم، ولما هو أليق بالإنسانية وبالكرامة التي خصَّ الله بها بني آدم ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد كرمهم فعلاً بالعقل والعاطفة وبالأشواق الروحية إلى ما هو أعلى من ضرورات الجسد، فإذا لم يتوفر لهم من ضرورات الحياة ما يتيح لهم فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية، ولهذه المجالات الفكرية، فقد سلبوا ذلك التكريم، وارتكسوا إلى مرتبة الحيوان، لا بل إن الحيوان ليجد طعامه وشرابه غالبًا، وإن بعض الحيوانات ليختال ويقفز ويمرح، وإن بعض الطير ليغرد ويسقسق فرحًا بالحياة بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب.

فما هو بإنسان وما هو بكريم على الله ذلك الذي تشغله ضرورات الطعام والشراب عن التطلع إلى مثل ما يناله الطير والحيوان، فضلاً على ما يجب للإنسان الذي كرمه الله، فإذا قضى وقته وجهده ثم لم ينل كفايته فتلك هي الطامَّة التي تهبط به دركات عما أراد به الله، والتي تسم الجماعة التي يعيش فيها بأنها جامعة هابطة، لا تستحق تكريم الله؛ لأنها تخالف عن إرادة الله.

إن الإنسان خليفة الله في أرضه قد استخلفه عليها لينمي الحياة فيها ويرقيها، ثم ليجعلها ناضرة بهيجة، ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها، ثم ليشكر الله على أنعمه التي آتاه، والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئًا إذا كانت

حياته تنقضي في سبيل اللقمة، ولو كانت كافية فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية[1].

الوجه السادس: أن العبد الذي يخرج زكاة ماله ييسر اللهُ عز وجل له سبل الخير وأسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان: إن الله يعين المتصدق على الطاعة، ويهيىء له طريق السداد والرشاد، ويذلل له سبل السعادة، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

الوجه السابع: أن الإحسان إلى الخلق بالقول أو الفعل سبب لزوال الهم والغم والقلق وجلب السعادة.

قال العلامة السعدي: ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه، فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه.

قال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب يؤتيه أجرًا عظيمًا، ومن جملة الأجر

---

(١) «العدالة الاجتماعية في الإسلام»: (ص١٣٢ ـ ١٣٣) الطبعة الخامسة.

العظيم زوال الهم والغم والأكدار ونحوها[1].

الوجه الثامن: أن الصدقة توسع الصدر، وتجلب السعادة، والبخل يضيق الصدر.

قال عائض القرني: ويدخل في عموم ما يجلب السعادة ويزيل الهم والكدر: فعل الإحسان من الصدقة والبر والخير للناس فإن هذا من أحسن ما يوسَّع به الصدر ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقد وصف ﷺ البخيل والكريم برجلين عليهما جبتان فلا يزال الكريم يعطي ويبذل فتتوسع عليه الجبة والدرع من الحديد حتى يعفو أثره، ولا يزال البخيل يمسك ويمنع فتتقلص عليه فتخنقه حتى تضيق عليه روحه!

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال سبحانه وتعالى؛ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

إن غلَّ الروح جزء من غلِّ اليد، وإن البخلاء أضيق الناس صدورًا وأخلاقًا، لأنهم بخلوا بفضل الله عز وجل، ولو علموا أن ما يعطونه للناس إنما هو جلب للسعادة لسارعوا إلى هذا الفعل الخيِّر ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

---

(١) «موارد الظمآن لدروس الزمان»: (١/ ٣٢١)، الطبعة التاسعة عشرة.

اللهُ أعطـاكَ فَـابـذلْ مِـن عطيتِـهِ   فَـالْمَـالُ عَـارِيَـةٌ والعُمْـرُ رَحَّـالُ
المَـالُ كـالمـاءِ إنْ تَحْبِـسْ سَـوَاقِيَـهُ   يَأْسَنْ وإن يجر يعذُبْ منه سَلْسالُ[(1)]

ونختم هذا الفصل بكلام طبيب القلوب وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ولما كان البخيل محبوسًا عن الإحسان ممنوعًا عن البر والخير، جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر، ممنوع من الانشراح، ضيق العطن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغمِّ والحزن، لا يكاد تقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب، فهو كرجل عليه جبة من حديد قد جمعت يداه إلى عنقه، بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها، وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله فبقي قلبه في سجنه كما هو.

والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسخ بها صدره فهو بمنزله اتساع تلك الجبة عليه، فكلما تصدق اتسع وانفسخ، وانشرح، وقوي فرحه، وعظم سروره، ولو لم يكن للصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقًا بالاستكثار منها والمبادرة إليها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(2)] [الحشر: ٩].

* * *

---

(١) «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» مع «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي»: (٥/ ٢/ ٤٨٦).

(٢) «الوابل الصيب»: (ص٥١ ـ ٥٢)، ط. الريان.

(٤) ومن أسباب السعادة الصيام:

فمن أسباب السعادة في الدنيا والآخرة الصيام، وهو أحد أركان الإسلام وقد تتعجب كيف يكون الصيام من أسباب السعادة مع أنه ترك الطعام والشراب والشهوات، وقد تقدم أن السعادة الحقيقية هي سعادة القلوب، والقلوب لا تسعد إلا بعلام الغيوب وغفار الذنوب، **فمن دواعي السعادة في الصيام**:

١ ـ أن العبد إذا ترك الطعام والشراب للهِ عز وجل عوضه الله عز وجل خيرًا، والصائم إيمانًا واحتسابًا ترك لله عز وجل، والله تعالى يفتح عليه من الأحوال الإيمانية والمعارف ما يستغني به عن الطعام والشراب، وأكمل الناس إيمانًا وأحسنهم صيامًا رسول الله ﷺ، وقد كان يواصل وينهى عن الوصال، ويقولون له: إنك تواصل. فيقول: «إني لست كهيئتكم إنيِّ أبيت لي مُطعم يطعمني وسَاقٍ يسقيني»[1].

والصحيح أنه لم يكن ﷺ يطعم ويسقى من جنس طعام الدنيا وشرابها، وإنما كان بفيض على قلبه من الأحوال الإيمانية والمعارف الشريفة ما يغنيه عن الطعام والشراب.

لها أحاديثُ مِن ذِكْرَاكَ تَشغلها عَنِ الطَّعَام وَتُلْهِيْهَا عَنِ الزَّاد

والعبد يجد شيئًا من هذه الأحوال والمعارف مع الصيام كل بحسب إيمانه ومحبته لله عز وجل.

٢ ـ ومن ذلك أن الصيام تدريب على تقوى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

فالصيام يتكون من نية باطنة لا يطلع عليها أحدٌ إلا اللهُ عز وجل، وترك لشهوات يستخفى بتناولها عادة، فالتقوى هي علم القلب بقرب الرب عز وجل، والصيام يدرب على هذه المراقبة لأنه قد ينتهك حرمة الصيام ولا يراه أحدٌ من الخلق، ولولا إحساسه باطلاع الله عز وجل على قلبه ومعيته له في كل زمان ومكان لانتهك حرمة الصيام، وقيل: التقوى: أن تترك ما تهوى لما تخشى، والتقوى هي أعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وأهل التقوى مبشرون بكل خير وسعادة وفوز وفلاح، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

٣ ـ ومن ذلك أن الصيام كسر للشهوات، وتطويع للنفس لرب الأرض والسماوات، وقد حُفَّت النار بالشهوات، وقد نصح النبي ﷺ الشباب الذين هم مظنة غلبة الشهوة الذين لا يجدون مؤن الزواج بالصيام، فقال ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

قال الشيخ عبد العزيز السلمان: ذلك أنه يكسر من شهوة الشباب حتى لا تطغى عليه الشهوة، فكان الصوم وسيلة إلى كف النفس عن المعاصي، فسبحانه من إله حكيم عليم.

---

(١) رواه البخاري: (٩/٨)، النكاح، ومسلم: (رقم١٤٠٠) النكاح، والباءة: هي مؤن الزواج، والوجاء: هو رض الأنثيين والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة ويقطع شر المني.

فالصيام يربي في الإنسان الفضائل، والإخلاص، والأمانة، والصبر عند الشدائد؛ لأنها إذا انقادت للامتناع عن الحلال من الغذاء الذي لا غنى لها عنه طلبًا لمرضاة الله تعالى، وخوفًا من أليم عقابه، فالأحرى بها أن تتمرن على الامتناع عن الحرام الذي هي غنية عنه، وتبتعد عنه كل البعد فلا يغدر، ولا يخون، ولا يخلف وعدًا، ولا يكذب ولا يرائي[1].

ولا شك في أن الاستعلاء على الشهوات، والعفة عن المحرمات له حلاوة وسعادة في قلوب العباد أبقى وأنفع للعبد من الشهوات المحرمة التي هي كطعام لذيذ مسموم، يتمتع به صاحبه لحظات ولكن فيه هلاكه وحتفه، ولكن سعادة الطاعة والتورع عن المعاصي موصولة بسعادة الآخرة، وموصلة إليها نسأل الله سعادة الدارين.

وقد وصف الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي حال الأسارى لشهوات أجسادهم فقال: إذا ملك الجسد زمام الحكم استرسل الإنسان في لذاته وشهواته، ورتع فيها رتع البهائم السائمة، فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته وقمة علمه وثقافته كحمار الطاحون، أو كثور الحرث، يدور بين المطعم والمرحاض .. لا يعرف سوى ذلك مبدءًا ومعادًا ويزول عنه كل هَمٍّ إلا هم الكسب ليأكل، والأكل ليكسب، ولا تصوير أدق وأصدق من تصوير القرآن المعجز: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢]، وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح، وحرم توجيه النبوة

---

(١) «موارد الظمآن»: (١/ ٣٥٦).

وإرشادها، وانقاد للنفس والهوى[1].

٤ ـ ومن أسباب السعادة في الصيام أنه تكميل لعبودية الله عز وجل، ومهما استكمل العبد مراتب العبودية تتم سعادته في الدنيا والآخرة، فأسعد الناس أكملهم عبودية لرب الناس ملك الناس إله الناس، وقد أضاف الله عز وجل الصيام إلى نفسه الشريفة فقال ﷺ: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»[2].

فلشرف هذه العبادة وبركتها، وكونها سرًّا بين العبد وربه عز وجل أضافها اللهُ تعالى إلى نفسه.

قال الحافظ ابن رجب: إن اللهَ خَصَّ الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال؛ لأن الصيام ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام؛ لأن الإحرام إنما يترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب، وكذلك الاعتكاف، وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات إلا أن مدتها لا تطول فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته، بل قد نهي أن يصلي ونفسه تشوق إلى طعام بحضرته، حتى يتناول منه ما يسكن نفسه . . وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النَّهار كله فيجد الصائم فقد هذه الشهوات وتشوق نفسه إليها خصوصًا في نهار الصيف لشدة حره

---

(١) «الأركان الأربعة»: (رقم١٨٢) نقلاً عن «منهج الإسلام في تزكية النفس»: (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٢) رواه البخاري: (٤/ ١٤١) الصوم، ومسلم: (٨/ ٤٢) الصيام.

وطوله . . فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تركه للهِ عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان[1].

٥ ـ ومن أسباب السعادة في الصيام أنه تذكير بنعم الله عز وجل، فإذا حرم العبد من الطعام والشراب في نهار رمضان ثم أبيح له في الليل فرح بذلك طبعًا وشرعًا، فالصائم يفرح إذا أتى وقت فطره لأنه خُلِّيَ بينه وبين ما تشتهيه نفسه طبعًا، ثم هو يفرح فرحًا آخر لأنه وفق لطاعة الله عز وجل وانتصر على هوى نفسه، وترك الطعام والشراب في النهار للهِ عز وجل، وزاده الشرع في موجب هذا الفرح بأن شرع له تعجيل الفطر فهو يبادر بالإفطار يمتثل كذلك أمر الله عز وجل ثم هو يفرح أيضًا في الآخرة عندما يجد ثواب الله عز وجل للصائمين، فإن الصيام من الصبر، وجزاء الصبر بغير حساب كما قال العزيز الوهاب ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال النبي ﷺ: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه»[2]. فالصيام من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة نسأل الله المغفرة.

٦ ـ ومن أسباب السعادة في الصيام أن العبد عندما يحس بألم الجوع والعطش في نهار رمضان يرق قلبه على الفقير والمسكين الذي يذوق ألم

---

(١) «لطائف المعارف»: (ص١٦٠ ـ ١٦١)، ط. دار الجيل، بيروت.

(٢) رواه البخاري: (٤/ ١٢٥) الصوم، ومسلم: (٨/ ٤٤ ـ ٤٥) الصيام.

وقال النووي: قال العلماء: أما فرحته عند لقاء ربه فبما يراه من جزائه وتذكر نعمة الله تعالى عليه بتوفيقه لذلك، وأما عند فطره فسببها تمام عبادته وسلامتها من المفسدات وما يرجوه من ثوابها. هامش «صحيح مسلم بشرح النووي»: (٨/ ٤٥ ـ ٤٦).

الجوع على الدوام، فيبادر إلى مواساته، فيزداد جوده في رمضان، وقد كان النبي ﷺ أجود الناس، ومع ذلك كان يزداد جوده في رمضان، فكان أجود بالخير من الريح المرسلة. وقد تقدم في الباب السابق كيف تسعد النفس بالإنفاق في سبيل الله عز وجل.

٧ - ومن أسباب التوفيق والسعادة في الصيام، أن العبد يقوى على نفسه مع الصيام، ويطوعها للملك العلام، فالنفس تنكسر بالصيام، وقد قال بعض السلف: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال بعضهم: النفس إذا شبعت طافت على الشهوات.

فمن كان لا يقوى على قهر نفسه في زمن الإفطار وتطويعها للعزيز الغفار، فإنه يقوى على قهرها مع الصيام.

قال الشيخ عبد العزيز السلمان: ومن فوائد الصيام أنه يقوي النفس على البر والحلم وهما تجنب كُلِّ ما من شأنه إثارة الغضب؛ لأن الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان.

ومن يلاحظ حال الصائمين الموفقين لما هم عليه من تحري الطاعة، وتحري سبل الخيرات والابتعاد عن المعاصي والرغبة في الإحسان يدرك أنَّ الصوم من أعظم أسباب الهداية، ويدرك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ويدرك معنى قوله ﷺ: «الصوم جُنَّة»[1]، ويدرك ما فيه من تهذيب النفس وتطهيرها

(١) رواه البخاري: (٤/ ١٢٥) الصوم، ومسلم: (٨/ ٤٤) الصيام، وقوله ﷺ: «الصيام جنة» معناه: سترة ومانع من الرفث والآثام ومانع أيضًا من النار.

من الأخلاق الموبوءة، وترويضها على الطاعات، وإعدادها للسعادتين الدنيوية والأخروية، وحسبك في فضل الصيام قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند اللهِ من ريح المسك»[1].

قال النووي: قال القاضي: يجازيه الله تعالى به في الآخرة فتكون نكهته أطيب من ريح المسك كما أن دم الشهيد يكون ريحه ريح المسك، وقيل: يحصل لصاحبه من الثواب أكثر مما يحصل لصاحب المسك، وقيل: رائحته عند ملائكة الله تعالى أطيب من رائحة المسك عندنا، وإن كانت رائحة الخلوف عندنا خلافه[2].

* * *

---

(١) «موارد الظمآن»: (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨)، والحديث هو السابق.

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٨/ ٤٣) هامش.

(٥) **ومن أسباب السعادة الحج:**

والحج ركن من أركان الإسلام، وشعيرة من شعائره العظام، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال النبي ﷺ: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحجَّ فَحُجُّوا»[١]، وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا»[٢].

* **فما هي الآثار الإيمانية التي يسعد بها العباد في الحج:**

١ ـ الاستجابة لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، وتلبية نداء إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] فالمؤمن الذي يوفق لهذه العبادة الكريمة يستحضر توفيق الله عز وجل له بالإحرام بها، وتسهيل سبيلها، وكم في المسلمين من يتقطع قلبه شوقًا لها ورغبة فيها، وما تهيأت له أسبابها، وكم منهم من هو منهوم باللذات مشغوف بالشهوات، ليس له من طلب الآخرة شيء، ولا من الهمم العالية ظِلٌّ ولا فَيء، فما أسعد المؤمن بهذه المشاعر النبيلة في هذه الشعائر الجليلة، وهو يلبي بقلبه ولسانه، فالحج هو القصد، فهو قاصد ببدنه البيت وبقلبه رب البيت يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعْمة لك والملك، لا شريك لك».

---

(١) رواه مسلم: (رقم١٣٣٧) الحج، مطولاً.

(٢) رواه البخاري: (٦٤١) الإيمان، ومسلم: (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) الإيمان.

إنها لحظات من السعادة تعجز عنها الكلمات وإنما تستشعرها قلوب المؤمنين والمؤمنات الذين ذاقوا حلاوتها وسعدت قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم بها. ولولا هذه السعادة في هذه العبادة ما تسابق المؤمنون إليها، وما أنفقوا كرائم الأموال، ونفائس الأنفاس في أدائها، حتى إن المؤمن ليهجر أوطانه وأوطاره، ويترك أهله وأولاده، ويتحمل المشاق وينفق الأموال الطائلة ليسعد برؤية البيت، والقرب من رب البيت، نسأل الله أن لا يحرمنا من هذه العبادة، والسعادة.

كان بعض الصالحين يكثر من التردد إلى الأماكن المقدسة للحج والعمرة، فقال في نفسه يومًا: ترى كثرة ترددي إلى هذه الأماكن هل يتقبل اللهُ عز وجل مِنِّي، فنام فرأى في منامه من يقول له: وهل تدعو إلى بيتك إلا من تحب.

ألا قُــــل لِــزوَّارِ دارِ الحبيبِ   هَنِيئًا لَكُمْ في الجِنَانِ الخُلُودُ
أَفِيضُــوا عَلَيْنَــا مِــنَ المــاءِ فَيْضًــا   فَنَحْــنُ عِطَــاشٌ وأَنْتُــم وُرُودُ

٢ ـ ومن الآثار الإيمانية التي يسعد بها المؤمن في هذه العبادة اقتداؤه بأبي الأنبياء وإمام الحنفاء، فإنه الذي رفع القواعد من البيت هو وولده إسماعيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال ابن كثير: لم يرد في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أذن في الناس بالحج ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧].

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي ترك ولده الرضيع وأمه هاجر بجوار مكان البيت، وَهَمَّ بالرجوع إلى الشام، وقالت له أم إسماعيل: آللهُ أمرك

بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا، ولما عدمت الماء صارت تتردد بين الصفا والمروة تبحث عن الفرج والماء لرضيعها، فنبعت زمزم تحت قدم إسماعيل عليه السلام، فشرع الله عز وجل السعي بين الصَّفَا والمروة ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ [البقرة: ١٥٨].

المؤمن يستشعر هذه الأحداث العظيمة في تاريخ البشرية، ويدين بالولاء لإبراهيم عليه السلام كما يدين به لنبيه محمد ﷺ، ويحس بعظمة الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية، فقد أمر الله عز وجل المسلمين باتباع ملة إبراهيم فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، أي: الزموها، فيتصل المؤمنون بهذه الثلة المباركة عبر الأجيال، وقد رأى النبي ﷺ موسى ويونس على هذا الدرب الكريم يحجون بيت الله.

عن ابن عباس قال: انطلقنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فلما أتينا على وادي الأزرق قال: «أي وادٍ هذا؟» قالوا: وادي الأزرق، قال: «كأنما أنظر إلى موسى ينعت عن طوله وشعره ولونه، واضعًا أصبعيه في أذنيه له جؤار إلى اللهِ بالتلبية، مَارًّا بهذا الوادي»، ثم نفذنا الوادي حتى أتينا ثَنِيَّةَ هَرْشى قال: «أي ثنية هذه؟» فقلنا: ثنية هرشى. قال: «كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، خطام الناقة خلبة، عليه جبة من صوف يُهِلُّ نهارًا بهذه الثنية ملبّيًا»[١].

(١) رواه ابن حبان: (رقم٣٨٠١ ـ الإحسان)، واللفظ له، ومسلم: (رقم١٦٦) الإيمان. =

فما أسعد المؤمن بطريق سار فيه الأنبياء الكرام، وما أهنأه بمشاهد شاهدها الأتقياء الأعلام إنه على دربهم يسير وبهديهم يستنير.

٣ ـ ومن ذلك أن الحج يعالج ما قد يكون بالقلوب من شح وحقد وتكبر، ومهما سلم القلب من هذه الأدواء سعد ويتجلى ذلك في أمور:

أ ـ ما يبذله الحاج من مالٍ ينفقه على سفره وتنقله، وما يتقرب به من هديٍ وذبائح ابتغاء مرضاة الله، وقد أشار الحق سبحانه إلى أن القصد من هذا الهدي تطهير النفس من الشح، وتزكيتها حتى تتحقق بالتقوى. فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

ب ـ اجتماع الحاج في صعيد واحد، لباسهم واحد، ونداؤهم واحد، يدعون ربًّا واحدًا، تجمعهم أخوة الإسلام، وتلتقي قلوبهم على طاعة ربهم والتضرع إليه، فتصفو نفوسهم، وتتطهر من الأحقاد، وتتحقق بينهم المساواة، فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، إنها وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، وبذلك تزول من النفوس صفاتها الذميمة، وتتخلى عن أمراض الحقد والأنانية والتكبر، ويقوى في النفس الشعور برابطة الإيمان.

ويلتقي الجميع على طاعة الرحمن، ويحل بينهم التعارف والتآلف، وتشحذ الهمم وتوقظ الآمال.

= قال القاضي عياض: أكثر الروايات في وصفهم تدل على أنه ﷺ رأى ذلك ليلة أسري به وقد وقع ذلك مبينًا في رواية أبي العالية.

ج ـ إن الله سبحانه يكرم عباده الحجيج يوم عرفة بالمغفرة والرضوان، وينزل عليهم الرحمات، فتغسل قلوبهم من أدران المعاصي، وتصفو نفوسهم من أكدار الذنوب، ويندحر الشيطان خائبًا، فتحرر النفس من وساوسه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء»[1].

٤ ـ ومن أسباب السعادة في الحج اجتماع جماعة من المؤمنين من أجناس متفرقة، وأماكن متشعبة وشعوب شتى، في مكان فيه آيات بينات، يؤدون شعائر الله ويبتهلون إلى الله ويعظمون شرعه.

قال الدهلوي: اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومكان فيه آيات بينات، قد قصده جماعة من أئمة الدين معظمين شعائر الله، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير، وتكفير الخطايا فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة.

وأصل الحج موجود في كل أمة، لابد لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين وهيئات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها؛ لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه، وأحق ما يحج إليه بيت الله، فيه آيات بينات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه، المشهود له بالخير

---

(١) «منهج الإسلام في تزكية النفس»: (١/ ٢٧٩ ـ ٢٨١) بتصرف.
والحديث رواه مسلم: (رقم١٣٤٩) الحج، والنسائي: (٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) مناسك الحج.

على ألسنة أكثر الأمم، بأمر اللهِ ووحيه، بعد أن كانت الأرض قفرًا وعرًا، إذ ليس غيره محجوجًا إلا وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له.

ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه، ويحلونه، ويعمرونه بذكر الله، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة، ويعطف عليهم دعوة الملأ الأعلى لأهل الخير[1].

٥ - ومن أسباب السعادة في الحج اجتماع المسلمين وتعارفهم وتعاونهم، وتقوية الروابط بينهم، وإصلاح دينهم ودنياهم.

قال الشيخ عبد العزيز السلمان: اعلم - وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين أن الله جل وعلا شرع الحج إلى بيته الحرام، وأمر المسلمين بالاجتماع عند بيته وفي المشاعر المعظمة، ليؤدوا واجبًا عليهم، وما أمرهم بأدائه ولينتفعوا من هذا الاجتماع العام للمسلمين في تقوية دينهم، وإصلاح دنياهم في قوتهم واتحادهم قال تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٨]، ففيه يحصل التعارف بين المسلمين، وتقوى الصِّلات والروابط بينهم، وليقوم كل منهم بما يجب عليه من النُّصْحِ لإخوانه المسلمين، فيتواصون بالحق، ويقوون روابط الوُدِّ والإخاء بينهم، فيا لها من فرصة ثمينة، ومناسبة عظمى لا تحصل لغير المسلمين اجتماع عظيم لجماعة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد يلتقون فيه من جميع أقطار الأرض. قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٧]، يدفعهم الإيمان ويحدوهم الشوق وتقودهم الرغبة فيما عند ربهم من الخير والمغفرة[2].

---

(١) «حجة الله البالغة»: (١/ ٧٥)، ط. دار التراث.

(٢) «أوضح المسالك إلى أحكام المناسك»: (ص٥ - ٦)، الطبعة العاشرة.



الفهارس

فهرس المراجع

١ ـ «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» لابن القيم، ط. دار الفكر.

٢ ـ «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» لابن رجب، ط. مكتبة المؤيد.

٣ ـ «أخي الحبيب قف» من رسائل الدعوة السلفية بجامعة الإسكندرية.

٤ ـ «أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الجرائم» لمصطفى فوزي غزال، ط. دار السلام.

٥ ـ «أفول شمس الحضارة العربية من نافذة الخمر» لمصطفى فوزي غزال، ط. دار السلام.

٦ ـ «أفول شمس الحضارة العربية من نافذة الشذوذ» لمصطفى فوزي غزال، ط. دار السلام.

٧ ـ «أوضح المسالك لأحكام المناسك» لعبد العزيز المحمد السلمان، الطبعة العاشرة.

٨ ـ «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارس، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط. دار الرسالة.

٩ ـ «الإسلام ومستقبل البشرية» لعبد الله عزام، ط. مكتبة المنار.

١٠ـ «بدائع الفوائد» لابن القيم، ط. دار الكتاب العربي.

١١ـ «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، ط. دار المعرفة، بيروت.

١٢ـ «تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط. المدني، جده.

١٣ـ «التائبون إلى الله» لإبراهيم بن عبد الله الحازمي، ط. دار الشريف للنشر والتوزيع.

١٤ـ «التفسير الكبير» للفخر الرازي، ط. دار الكتب العلمية.

١٥ـ «جامع الأصول» لابن الأثير، بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط. دار الفكر.

١٦ـ «جامع الترمذي»، ط. شاكر.

١٧ـ «جولة في رياض العلماء» للدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، ودار النفائس.

١٨ـ «حجة الله البالغة» لشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلي، ط. دار التراث.

١٩ـ «حلاوة الإيمان»، لسليم الهلالي، ط. مكتبة التوعية الإسلامية.

٢٠ـ «حلية الأولياء» لأبي نُعيم الأصفهاني، ط. دار السعادة.

٢١ـ «الداء والدواء» لابن القيم، بتحقيق على الحلبي، ط. ابن الجوزي.

٢٢ـ «الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي» لعبد الله ناصح علوان، ط. دار السلام.

٢٣ـ «الدقائق الغالية» لمحمد عبد الله الخطيب، ط. دار المنار الحديثة.

٢٤ـ «روضة المحبين» لابن القيم، مطبوعات دار الصفا.

٢٥ ـ «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم، بتحقيق عبد القادر وشعيب الأرناؤوط، ط. الرسالة.
٢٦ ـ «سنن ابن ماجه» لابن القيم القزويني، ط. دار الكتب العلمية.
٢٧ ـ «سنن البيهقي»، ط. دار الكتب العلمية.
٢٨ ـ «سنن الدارمي»، ط. دار الكتب العلمية.
٢٩ ـ «سنن النسائي شرح السيوطي وحاشية السندي»، ط. دار الكتب العلمية.
٣٠ ـ «السعادة بين الوهم والحقيقة» للدكتور ناصر العمر، ط. دار الصفوة.
٣١ ـ «السنة» لابن أبي عاصم، ومعه «ظلال الجنة» للألباني، ط. المكتب الإسلامي.
٣٢ ـ «شباب عادوا إلى الإسلام» لعائض القرني.
٣٣ ـ «شرح السنة» للبغوي، بتحقيق شعيب الأرناؤوط، ط. دار بدر.
٣٤ ـ «صحيح الترمذي» للألباني، ط. المكتب العربي.
٣٥ ـ «صفة الصفوة» لابن الجوزي، ط. مكتبة التوعية الإسلامية.
٣٦ ـ «صيد الخاطر» لابن الجوزي، ط. دار الكتب العلمية.
٣٧ ـ «طريق الهجرتين» لابن القيم، ط. المكتبة السلفية.
٣٨ ـ «عارضة الأحوذي» لابن العربي، ط. دار الوحي.
٣٩ ـ «عون المعبود» لشمس الحق أبادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
٤٠ ـ «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. الرئاسة العامة للبحوث والإرشاد بالرياض.
٤١ ـ «العقائد الإسلامية» لسيد سابق.
٤٢ ـ «العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ـ الرسل والرسالات» للدكتور عمر سليمان الأشقر، ط. الفلاح.
٤٣ ـ «العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ـ اليوم الآخر ـ القيامة الصغرى» ط. الفلاح والنفائس.
٤٤ ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني، ط. السلفية.
٤٥ ـ «فقه الزكاة» للدكتور يوسف القرضاوي، ط. مؤسسة الرسالة.
٤٦ ـ «في ظلال القرآن» لسيد قطب، دار العلم بجدة.
٤٧ ـ «الفوائد» لابن القيم، ط. دار الحديث.
٤٨ ـ «قالوا عن الإسلام»، إعداد: الدكتور عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٤٩ ـ «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» لعبد الرحمن بن ناصر، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي، ط. مركز صالح بن صالح.

٥٠ ـ «مجلة البحوث الإسلامية»، ط. دار أولي النهى، بإذن إدارة البحوث العلمية والإفتاء.

٥١ ـ «مجلة صوت الدعوة»، الدعوة السلفية بالأسكندرية.

٥٢ ـ «محاسن التأويل» للقاسمي، ط. دار الفكر.

٥٣ ـ «مختصر الصلاة لماذا؟» لمحمد بن إسماعيل، توزيع دار العقيدة.

٥٤ ـ «مختصر العلو» للجويني، بتحقيق الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

٥٥ ـ «مستدرك الحاكم» ومعه «تلخيص الذهبي»، ط. دار المعرفة.

٥٦ ـ «مسلم بشرح النووي»، ط. المطبعة المصرية ومكتبتها.

٥٧ ـ «مسند أحمد» بفهرس الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

٥٨ ـ «معارج القبول» لحافظ بن أحمد حكمي، ط. السلفية.

٥٩ ـ «مفتاح دار السعادة» لابن القيم، مكتبة الفاروق الحديثة ومطبعتها.

٦٠ ـ «منهج الإسلام في تزكية النفوس»، د. أنس أحمد كرزون، ط. دار نور المكتبات.

٦١ ـ «موارد الظمآن لدروس الزمان» لعبد العزيز المحمد السلمان، ط. وقفية.

٦٢ ـ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لمحمد فؤاد عبد الباقي، ط. مؤسسة جمال.

٦٣ ـ «الهداية لأسباب السعادة».

٦٤ ـ «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم، ط. الريان.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

القسم الأول
أين طريق السعادة؟ ١٣

* المقدمة ٥
١ ـ أدلة القرآن المبين على أن سعادة العباد في طاعة الله رب العالمين ١٥
٢ ـ أدلة السنة المطهرة على أن سعادة العباد في طاعة الله أهل التقوى وأهل المغفرة ٢٤
٣ ـ أقوال الصالحين والمصلحين في بيان أن طريق السعادة في طاعة الله رب العالمين ٣٢
٤ ـ شهادة التائبين على أن طريق السعادة في طاعة الله رب العالمين ٤١
٥ ـ واقع الأفراد البعيدين عن الشرع المتين يشير إلى أن السعادة في الطاعة والعبادة ٥٣
٦ ـ واقع المجتمعات التي تدين بالكفر والإباحية يشير إلى أن السعادة في الطاعة والعبادة ٧٠
المظهر الأول: الاكتئاب والاضطرابات النفسية ٧١
المظهر الثاني: الانتحار ٧٥
المظهر الثالث: الإغراق في شرب الخمر وسائر المخدرات ٧٩
المظهر الرابع: السعار الجنسي والشذوذ والأمراض الجنسية الفتاكة ٨٤
المظهر الخامس: كثرة الجرائم ٨٧
٧ ـ شواهد في قلب كل مؤمن تشير إلى أن السعادة في الطاعة والعبادة ٩١
٨ ـ شهادة المنصفين من الغربيين الذين أحسوا بالسعادة في دين الإسلام والعبادة ٩٨

القسم الثاني
كيف تسير في طريق السعادة حتى تسعد في الدنيا والآخرة ١٠٣

* الأمر الأول: الإيمان وأثره في الوصول إلى السعادة ١١٢
١ ـ الإيمان بالله عز وجل وأثره في إسعاد العباد ١١٨
٢ ـ الإيمان بالملائكة وأثره في إسعاد العباد ١٣١
٣ ـ الإيمان بالكتب وأثره في إسعاد العباد ١٣٨

٤ ـ الإيمان بالرسل وأثره في إسعاد العباد ١٤٤
٥ ـ الإيمان باليوم والآخر وأثره في إسعاد العباد ١٤٨
٦ ـ الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في إسعاد العباد ١٥٣
* الأمر الثاني: اتباع سنة النبي ﷺ وأثره في الوصول إلى السعادة ١٦١
* الأمر الثالث: تعهد العبد نفسه بالطاعات وأثره في سعادة العباد في الدنيا والآخر ١٧٠
١ ـ فمن أسباب السعادة طلب العلم النافع ١٧٤
٢ ـ ومن أسباب السعادة الصلاة ١٨١
٣ ـ ومن أسباب السعادة إيتاء الزكاة ١٩٠
٤ ـ ومن أسباب السعادة الصيام ٢٠٢
٥ ـ ومن أسباب السعادة الحج والعمرة ٢٠٩

* * *